فى
التنوير الإسلامى
«١٠»



المدرسة الفكرية والمشروع الفكري

تأليف

د. محمد عمارة



في التنوير الإسلامي ١٠

الدكتور / يوسف القرضاوي

المدرسة الفكرية.. والمشروع الفكري

تأليف

د. محمد عمارة





اسم السلسلة: في التنوير الإسلامي.

اسم الكتاب: د/ يوسف القرضاوي المدرسة الفكرية.. والمشروع الفكري.

تأليف: دكتور / محمد عمارة.

تاريخ النشر: أكتوبر ١٩٩٧.

رقم الإيداع: ٩٧٩٨/ ١٩٩٧.

الترقيم الدولي: I . S . B . N 977 - 14 - 0642 -6

الناشر: **دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع**

المركز الرئيسي: ٨٠ المنطقة الصناعية الرابعة - مدينة السادس من أكتوبر

ت: ٣٣٠٢٨٧ - ٣٣٠٢٨٩ / ٠١١.

فاكس: ٣٣٠٢٩٦ / ٠١١.

مركز التوزيع: ١٨ ش كامل صدقي - الفجالة - القاهرة.

ت: ٥٩٠٩٨٢٧ - ٥٩٠٨٨٩٥ / ٠٢.

فاكس: ٥٩٠٣٣٩٥ /٠٢.

ادارة النشر: ٢١ ش أحمد عرابي - المهندسين - القاهرة

ت: ٣٤٦٦٤٣٤ - ٣٤٧٢٨٦٤ / ٠٢. **فاكس:** ٣٤٦٢٥٧٦ /٠٢.

تعريف.. في سطور

- الأستاذ الدكتور يوسف القرضاوى ..
- عالم مسلم .. ولد بريف مصر ـ بقرية « صفط تراب » مركز المحلة الكبرى ، محافظة الغربية ـ فى غرة ربيع الأول سنة ١٣٤٥ هـ ٩ سبتمبر سنة ١٩٢٦ م .
- حفظ القرآن الكريم ، وهو دون العاشرة من عمره .. ودرس بالمعاهد الدينية الأزهرية ـ الابتدائى والثانوى ـ بمدينة طنطا .. وتخرج من كلية أصول الدين ـ بالقاهرة سنة ١٩٥٣م .. ونال إجازة التدريس سنة ١٩٥٤م .. وحصل على الدكتوراه ـ من الأزهر – بمرتبة الشرف الأولى ـ عن أطروحته (فقه الزكاة) سنة ١٩٧٣ م .
- تفتحت مواهبه الإسلامية ، وبدأت مشاركاته فى العمل العام ، وهو بالمعهد الدينى بطنطا .. فشارك فى الحركة الإسلامية ـ جماعة الإخوان المسلمين ـ وفى الدعوة .. والخطابة .. وبدأت خطابته للجمعة وهو فى السابعة عشرة من عمره ـ بالقرية ـ وعمل خطيبا بمدينة المحلة الكبرى سنة ١٩٥١م ..
- اعتقل أكثر من مرة ـ فى العهد الملكى .. وبعد ثورة يوليو سنة ١٩٥٢م ..
- عمل ـ بعد تخرجه ـ بمراقبة الشئون الدينية ، بوزارة الأوقاف المصرية .. وخطيبا بجامع الزمالك سنة ١٩٥٦م .. وفى الإدارة الثقافية بالأزهر الشريف ..

- أعير إلى دولة قطر سنة ١٣٨١هـ سنة ١٩٦١م ، مديرا لمعهدها الدينى .. فرئيسا لقسم الدراسات الإسلامية بكلية التربية .. فعميدا مؤسسا لكلية الشريعة والدراسات الإسلامية .. فمديرا المركز بحوث السنة والسيرة - الذى قام بتأسيسه ..
- عضو فى العديد من المؤسسات العلمية والخيرية .. من مثل : الهيئة الخيرية العالمية الإسلامية - بالكويت - والمجمع الفقهى لرابطة العالم الإسلامى - بمكة - والمجمع الملكى لبحوث الحضارة الإسلامية - بالأردن - ومركز الدراسات الإسلامية - بأكسفورد - ومجلس أمناء الجامعة الإسلامية العالمية - بإسلام آباد - ومنظمة الدعوة الإسلامية - بالخرطوم - ورئيس لهيئة الرقابة الشرعية فى عدد من المصارف الإسلامية ..
- قدم للمكتبة العربية والإسلامية قرابة التسعين كتابا - تُرجم العديد منها إلى العديد من اللغات الإسلامية والأجنبية - وذلك غير الخطب والمقالات والمحاضرات والأبحاث والمناظرات والفتاوى والأحاديث التى ملأت ساحات الفكر والدعوة والإعلام فى وطن العروبة وعالم الإسلام ، بل وخارج عالم الإسلام ..

لقد أتى على الثقافة الإسلامية ، فى تاريخها ، حين من الدهر أصابها فيه «فصام نكد» ، بل وصراع حاد بين « الصوفية » وبين «الفقهاء» .. ولقد كان «للدولة» ولموقع كل من الصوفية والفقهاء من سلطتها وسلطانها أو من أحضان « الأمة » دور فى تأجيج هذا الصراع وحدة هذا الخلاف ..

لكن الذى يعنينا هنا هو الأثر الثقافى لهذا الفصام وذلك الصراع .. ذلك أنه قد أثمر ألوانا من **الفقهاء الذين لا «قلوب» لهم ، وطبقات من الصوفية الذين لا «عقول» لهم !** .. أثمر فقها وقف ـ حتى فى العبادات والشعائر والمناسك ـ عند الحركات والأشكال .. وأثمر تصوفا مغرقا فى الباطنية[1] ، وأحيانا فى الغنوصية[2] ، بل والشعوذة والخرافات .. فالحديث الفقهى عن

---

(١) الباطنية : وصف لكل الفرق التى غالت فى تأويل النصوص الدينية ، سواء بتعميم التأويل ، عندما زعموا أن لكل ظاهر باطنا ، ولكل تنزيل تأويل ، أو بالذهاب فى التأويلات إلى المعانى التى لاتقرها قوانين اللغة ولا ثوابت الشريعة ومحكمات عقائدها . ولقد كانت السرية هى أسلوب عمل أغلب الفرق الباطنية فى تاريخ الفكر البشرى .

(٢) الغنوصية : من الفرق المغالية فى التأويل .. رأت أن « المعرفة » ، بالمعنى الروحى والباطنى ، هى سبيل الخلاص ، وليس النص أو العقل .. وكلمة « غنوصية » جاءت من الكلمة اليونانية « غنوصيص » بمعنى : المعرفة .. ولقد كانت الفلسفة الغنوصية السبب الأول فى التحولات التى انتقلت بالنصرانية من التوحيد إلى فكر « الحلول » .. ولقد حاولت ذلك مع الإسلام ، ففشلت ، لكنها تركت آثارها فى فلسفة وحدة الوجود . انظر كتابنا (معركة المصطلحات بين الغرب والإسلام) طبعة القاهرة سنة ١٩٩٧م .

الشعائر والمناسك غابت منه المقاصد التهذيبية والمضامين الروحية لحساب «الأداء» و «الأشكال» و «الحركات» و «السكنات» الخاصة بالمظاهر والأعضاء، الأمر الذى باعد، فى تعريف وتوصيف هذه الشعائر والمناسك ، فى كتب الفقه، بينها وبين ثمرات القلب، من الخشية والورع والتقوى، التى هى لب العبادات ومقاصدها وثمراتها.. كما أصبح الحديث فى التصوف مقامات وأحوالا ومدارج ومعارج غابت عنها عقلانية الإسلام وضوابط شريعته وتحديدات المأثورات المحكمات من الكتاب والسنة.. وهذا الفصام النكد - بين الفقهاء الذين لا «قلوب» لهم، والصوفية الذين لا «عقول» لهم - هو الذى اشتهر فى ثقافتنا الإسلامية بانفصال «الشريعة» عن «الحقيقة»، **وذلك عندما جردت الشريعة من حقيقتها الروحية، وانفلتت الحقيقة الروحية من ضوابطها الشرعية!..**

وفى مواجهة هذا الانحراف الثقافى كانت وقفة حجة الإسلام أبو حامد الغزالى (٤٥٠ - ٥٠٥هـ ١٠٥٨ - ١١١١م) الذى أراد إحياء العلوم الشرعية، لإنقاذها من الجفاف الذى كاد أن يصيبها بالموات، وضبط الأحوال الصوفية، إنقاذا لها من الباطنية الغنوصية، وذلك **لإعادة مزيج وتزامل «العقل» و «القلب» و«النص» إلى ثقافة الإسلام**.. حتى لقد جعل الغزالى موسوعته الفذة **(إحياء علوم الدين)** عنوانا لهذه الوقفة، وتأسيسا لهذا الاتجاه التصحيحى لثقافة الإسلام.. **فالإسلام، فى جوهره ومقاصده «إحياء» للإنسان ، بل ولكل ميادين الحياة ﴿يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم﴾**[٢]..

---

(١) الأنفال : ٢٤ .   (٢) العنكبوت : ٦٤ .

وهو يسعى بهذا الإحياء الحياتى إلى الحياة الحقيقية والإحياء الحق فى الآخرة ، التى هى خير وأبقى ﴿ وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون ﴾[1] وبغير امتزاج وتزاوج « العقل » و « القلب » واستمدادهما من مأثورات الإسلام المعصومة - القرآن الكريم والسنة الصحيحة - يغيب هذا « الإحياء » ، الذى هو جماع رسالة الإسلام . .

وإذا كان موقف حجة الإسلام الغزالى ، وصيحته ودعوته وإنجازاته العملاقة فى مختلف حقول الثقافة والعلوم الإسلامية ، قد غالبت ذلك الفصام النكد بين «العقل» و «القلب» ، بين «الفقه» و«التصوف» ، بين «الأثر» و «الذوق» ، دون أن تغلبه - وذلك بسبب سنن التراجع الحضارى التى أخذت بخناق الأمة لعدة قرون . . فلقد جاءت مدرسة الإحياء والتجديد الدينى - مدرسة الجامعة الإسلامية - التى تبلورت فى عصرنا الحديث من حول ، وبريادة جمال الدين الأفغانى (١٢٥٤ - ١٣١٤هـ ١٨٣٨ - ١٨٩٧م) لتواصل الجهاد فى هذا الميدان ، ميدان طى صفحة ذلك الفصام النكد بين «العقل» و«القلب» فى ثقافتنا الإسلامية . . فهذه المدرسة الإحيائية التجديدية قد تبلورت فى مواجهة مدارس فكرية أخرى ، منها :

١ - **مدرسة الأثر والتقليد** : التى لا تتجاوز ظواهر النصوص ، فكان تدينها شكليا جافا مخاصما لروحانية الدين . .

٢ - **مدرسة التصوف المشوه** : المنسحب من الحياة والحضارة والعمران ، والذى يدير ظهره لبراهين العقل ولدلالات النصوص المحكمة جميعا . .

٣ - **ومدرسة التغريب والحداثة الغربية** : التى بدأت من حيث انتهى الفكر الوضعى الغربى ، فأنكرت الدين كمصدر

للمعرفة ، ورفضت القلب كسبيل لتحصيلها ، ووقفت عند الواقع المادى والعقل والتجريب . .

فجاءت مدرسة الإحياء الدينى ، والوسطية الإسلامية الجامعة ، لتجمع فى مصادر المعرفة بين آيات الوحى - كتاب الله المسطور - وآيات الكون - كتاب الله المنظور - ولتعتمد - فى تحصيل المعارف والعلوم - على الهدايات الأربع : العقل والنقل والتجربة والوجدان (القلب) داعية بذلك إلى طى صفحة ذلك الفصام النكد بين «العقل» و « القلب » فى ثقافة الإسلام . .

فالأفغانى كان مجددا ، امتلك عقل الفيلسوف وقلب الصوفى ، فجاء تجديده مزيجا منهما . . فمع عقلانيته التى تتبدى فى مثل قوله : « إن نقطة افتراق الإنسان عن غيره من الحيوانات هى قوته العاقلة . . والله قد جعل قوة العقل للإنسان محور صلاحه وفلاحه . . فالعقل هو جوهر إنسانية الإنسان ، وهو أفضل القوى الإنسانية على الحقيقة . . »[1] .

مع هذه العقلانية ، لايجد الأفغانى لنفسه وصفا أدق من وصف « الدرويش » ! . . فيتحدث إلى نفسه - وعنها - فيقول : «أيها الدرويش الفانى . . م تخشى ؟! . . اذهب وشأنك ، ولا تخف من السلطان ، ولاتخشى الشيطان ! كن فيلسوفا ترى العالم ألعوبة ! ولاتكن صبيا هلوعا . إنه سيان عندى ، طال العمر أو قصر . . فإن هدفى أن أبلغ الغاية ، وحينئذ أقول : فزت ورب الكعبة ! »[2] .

---

(١) (الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى) ص ٢٥٦ ، ٢٥٧ ، ٢٦٠ . دراسة وتحقيق : د . محمد عمارة . طبعة القاهرة سنة ١٩٦٨ م .

(٢) المصدر السابق . جـ ١ ص ١٧ . طبعة بيروت سنة ١٩٧٩ م .

ففيه امتزجت عقلانية الفيلسوف بصوفية الدرويش ! . .

وعن هذه الحقيقة من حقائق الموقع الفكرى لجمال الدين الأفغانى ، يقول أعرف الناس به ، وأخبرهم بمدرسته ، الإمام محمد عبده (١٢٦٥ - ١٣٢٣ - ١٨٤٩ - ١٩٠٥م) : «أما مذهب الرجل - (الأفغانى) - فحنيفى حَنَفِىٌ وهو وإن لم يكن فى عقيدته مقلدا ، لكنه لم يفارق السنة الصحيحة ، مع ميل إلى مذهب السادة الصوفية ، رضى الله عنهم . . ولو قلت : إن ما آتاه الله من قوة الذهن وسعة العقل ونفوذ البصيرة هو أقصى ما قُدِّر لغير الأنبياء ، لكنتُ غير مبالغ . ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو فضل عظيم »[1] !

ففيه ، وفى مدرسته ، عاد الاقتران والامتزاج بين « السنة » و«التصوف» ، بين عقلانية الفيلسوف وروحانية الصوفى . . بين «العقل» و « القلب » من جديد . .

وعلى هذا الدرب ، الذى امتزج فيه العقل بالقلب ، فغدت «الشريعة» هى ضابط «الحقيقة» ، وغدت «الحقيقة» هى لب «الشريعة» ومقصدها ، كان الاجتهاد التجديدى لمهندس هذه المدرسة ، الإمام محمد عبده . . الذى قال عن مقام العقل فى تجديده واجتهاده : « إن الإسلام لايعتمد على شىء سوى الدليل العقلى ، والفكر الإنسانى الذى يجرى على نظامه الفطرى ، فلا يدهشك بخارق للعادة ، ولايغشى بصرك بأطوار غير معتادة ، ولايخرس لسانك بقارعة سماوية ، ولايقطع حركة فكرك بصيحة إلهية . .»[2] .

---

(١) (الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده) جـ ٢ ص ٣٤٣ ، ٣٤٤ . دراسة وتحقيق : د . محمد عمارة . طبعة القاهرة سنة ١٩٩٣ .

(٢) المصدر السابق . جـ ٣ ص ٢٩٧ ، ٢٩٨ .

ومع هذه العقلانية ، رأيناه قد اعتبر أن مشروعه الفكرى إنما هو ثمرة من ثمرات النزعة الصوفية التى تربى عليها ، والتى كانت الفتح الإلهى الذى جعله يُقبل على العلم والتعليم ، حتى قبل لقائه بأستاذه جمال الدين الأفغانى ـ ولقد أشار إلى هذه الحقيقة فقال : « **إنه لم يوجد فى أمة من الأمم من يضاهى الصوفية فى علم الأخلاق وتربية النفوس .. وكل ما أنا فيه من نعمة فى دينى ، أحمد الله تعالى ، فسببها التصوف ..**»[1] .

فلقد تزاملت العقلانية مع الروحانية الصوفية ، مع الدعوة إلى السلفية فى تلقى منابع الدين .. وبعبارة محمد عبده : « تحرير الفكر من قيد التقليد ، وفهم الدين على طريقة سلف الأمة ، قبل ظهور الخلاف ، والرجوع فى كسب معارفه إلى ينابيعها الأولى ، واعتباره من ضمن موازين العقل البشرى التى وضعها الله لترد من شططه ، وتقل من خلطه وخبطه ، لتتم حكمة الله فى حفظ نظام العالم الإنسانى ، وإنه على هذا الوجه يعد صديقا للعلم ، باعثا على البحث فى أسرار الكون ، داعيا إلى احترام الحقائق الثابتة ، مطالبا بالتعويل عليها فى أدب النفس وإصلاح العمل ..»[2] .

وهذا المزيج بين العقل والقلب والنص ـ العقلانية الصوفية السلفية لهو الذى ميز نظرية المعرفة الإسلامية ، كما عبر عنها الإمام محمد عبده ، تلك التى برئت من ذلك الفصام النكد ـ فلم تقف عند النقل وحده .. أو العقل وحده .. أو القلب وحده ـ وإنما اعتمدت على «الهدايات الأربع» فى تحصيل المعارف والعلوم .. على

---

(١) المصدر السابق . جـ ٣ ص ٥٥١ ، ٥٥٢ .

(٢) المصدر السابق . جـ ٢ ص ٣١٠ .

العقل والنقل والتجربة والوجدان . . « فلقد منح الله تعالى الإنسان أربع هدايات يتوصل بها إلى سعادته : أولاها : هداية الوجدان الطبيعى والإلهام الفطرى . . والثانية : هداية الحواس والمشاعر . . والثالثة : هداية العقل . . الذى يصحح غلط الحواس والمشاعر ، ويبين أسبابه . . والرابعة : هداية الدين . . التى تصحح غلط العقل والحواس . . »[1] . . ولذلك قال الأستاذ الإمام : « إن أحكام الدين ، حتى المعاملات منها ؛ ينبغى أن تساق إلى الناس مساق الوعظ المحرك للقلوب ، لا أن تُسرد سردا جافا ، كما ترى فى كتب الفقه »[2] !

وعلى هذا الدرب ، سار أعلام هذه المدرسة وعلماء ذلك التيار - تيار الإحياء والتجديد - فى مختلف بلاد الإسلام . . فالشيخ محمد رشيد رضا (١٢٨٢ - ١٣٥٤هـ ١٨٦٥ - ١٩٣٥م) بدأ مسيرته الفكرية صوفيا ، ومريدا منخرطا فى « الطريقة النقشبندية » . . ثم تضلع فى علوم المأثور . . فلما قرأ بعض أعداد مجلة (العروة الوثقى) - التى سبق وأصدرها الأفغانى ومحمد عبده (١٣٠٠هـ ١٨٨٣م) ، كانت له المنهاج الجامع بين الأثر والرأى ، بين النقل والعقل والوجدان ، حتى لقد تحدث عنها فقال : « . . والذى علمته من نفسى ومن غيرى أنه لايوجد لكلام عربى فى هذا العصر ولا فى قرون قبله بعض ما كان لها - (العروة الوثقى) - من إصابة موقع الوجدان من القلب والإقناع من العقل ، ولا حد للبلاغة إلا هذا »[3] !

---

(١) المصدر السابق - جـ ٤ ص ٤٠ ، ٤١ .

(٢) المصدر السابق - جـ ٤ ص ٦٢٨ .

(٣) (تاريخ الأستاذ الإمام) جـ ١ ص ٣٠٣ . طبعة القاهرة سنة ١٩٣١ م .

فلما هاجر الشيخ رشيد من طرابلس الشام إلى مصر ، أصبح المريد والترجمان للإمام محمد عبده ، وحامل تجديد هذه المدرسة الفكرية ـ عبر مجلة (المنار) ـ إلى عالم الإسلام على امتداد أربعين عاما ، فغدا الإمام الجامع فى إبداعه وتجديده بين قلب الصوفى وعقل المجتهد ، مع إضافته المتميزة التى جعلته يؤصل ويبرهن على اجتهادات عقل هذه المدرسة التجديدية بالنصوص والمأثورات[1] . .

وعلى هذا الدرب سار عشرات من الأعلام والعلماء . . تفاوتت إنجازاتهم وإضافاتهم ، وتنوعت اهتماماتهم وميادين التركيز فى إبداعاتهم الفكرية وحقول تجديدهم ، لكنهم جمعوا بين نور العقل ونور القلب فيما تركوا من بصمات فى الثقافة الإسلامية الحديثة والمعاصرة . .

فالإمام الشهيد الشيخ حسن البنا (١٣٢٤ ـ ١٣٦٨هـ ١٩٠٦ ـ ١٩٤٩م) كان الداعية الذى كاد أن يكون قلبا يتدفق منه النور العذب والعذوبة النورانية إلى قلوب سامعيه وقارئيه . . وفى ذات الوقت ، كان الفقيه ـ بل والمتكلم ـ الذى يضبط مصطلحاته ـ رغم أسلوبه الأدبى ـ بأدق موازين الفقهاء والمتكلمين . . حتى لقد صدق وأجاد عندما دعا إلى تزامل العقل والغيب فى الثقافة الإسلامية . . « فلقد جاء الإسلام الحنيف . . فجمع بين الإيمان بالغيب والانتفاع بالعقل . . والمجتمع الإنسانى لن يصلحه إلا اعتقاد روحى يبعث فى النفوس مراقبة الله . . فى الوقت الذى يجب على الناس فيه أن يطلقوا لعقولهم العنان لتعلم وتعرف

---

(١) د . محمد عمارة (مسلمون ثوار) ص ٤٤٧ ـ ٤٥٧ . طبعة القاهرة سنة ١٩٨٨ م .

وتخترع وتكتشف وتسخّر هذه المادة الصماء ، وتنتفع بما فى الوجود من خيرات وميزات . . فإلى هذا اللون من التفكير ، الذى يجمع بين العقليتين : الغيبية والعلمية ، ندعو الناس . .»[1] .

كما صدق وأجاد عندما وصف دعوته بأنها « تجديدية ـ وسلفية ـ وصوفية » فى آن واحد . . « فهى دعوة من الدعوات التجديدية لحياة الأمم والشعوب . . ودعوة سلفية . . وطريقة سنية . . وحقيقة صوفية . . وهيئة سياسية . . وجماعة رياضية . . ورابطة علمية ثقافية . . وشركة اقتصادية . . وفكرة اجتماعية »[2] فى آن واحد . .

والشيخ محمد الغزالى (١٣٣٥ ـ ١٤١٦هـ ١٩١٧ ـ ١٩٩٦م) هو علم من أعلام هذه المدرسة ، جمع ، فى سهله الممتنع ، عقلا كبيرا ، وقلبا بالخشية والتقوى عامرا ومنيرا ، وفقها يهتم بالمنطق الفقهى والمقاصد الشرعية والهدايات القرآنية ، ليجعلها ضوابط فقهه ، أكثر من اهتمامه بمراكمة المأثورات والمرويات . .

وإذا كان الشيخ محمد الغزالى ، عليه رحمة الله ورضوانه ، فى هذا المنهج والموقع والموقف ، هو أقرب إلى الإمام محمد عبده . . فإن الشيخ الدكتور يوسف القرضاوى ـ وهو والغزالى من الثمار الطيبة للشجرة المباركة ـ شجرة حسن البنا ـ هو أشبه ـ فى مشروعه الفكرى وآليات إبداعاته الفكرية ـ بالإمام الشيخ رشيد رضا . . فلقد جمع إلى عقلانية هذه المدرسة التجديدية قلب الداعية ـ وهو الذى نشأ وعاش ونضج وأبدع كواحد من أبرز

---

(١) (مجموعة رسائل الإمام الشهيد) ص ١١٠ ـ ١١٢ . طبعة دار الشباب . القاهرة ـ بدون تاريخ . .

(٢) المصدر السابق . ص ١٢٢ ، ١٥٤ ، ١٥٥ .

دعاة الحركة الإسلامية المعاصرة - مع إبحار ماهر في محيطات المأثورات .. وذلك عندما امتلك أدوات الضبط والتحرير لمسانيدها ، والعقل الناقد والموازن والمقارن بين متونها ودلالاتها .. مع التميّز بين علماء هذه المدرسة بالشرح والإفاضة والإلحاح على التفصيل والتوضيح للأفكار ، وذلك بحكم العروة الوثقى التي ربطت بينه وبين الدوائر الأوسع من الجمهور في الصحوة الإسلامية المعاصرة .. فحق له أن يكون النموذج المشرق للداعية الفقيه ، وحق لمشروعه الفكري أن يكون واحدا من أبرز مشاريع فقه الدعوة الإسلامية في الواقع المعاصر الذي نعيش فيه ..

وعن هذه الحقيقة .. حقيقة الموقع الفكري والمدرسة الفكرية التي ينتمي إليها الدكتور يوسف ، يقول : « لقد كانت فرصة لقائي بالإمام حسن البنا محدودة .. كان في القاهرة ، وكنت في طنطا ، حيث أدرس في معهدها الديني .. فحرمتُ التلمذ المباشر على إمام الدعوة .. لكنني قرأت تقريبا كل ما عثرت عليه من تراثه .. وتلمذت على أفكاره المبثوثة في رسائله ومقالاته ، وفي تلامذته وأصحابه الذين عايشوه وتلقوا عنه العلم والعمل ، والفكر والسلوك .. والحق أني لم أعجب بشخصية حية لقيتها وتأثرت بها ، كما أعجبت بشخصية الشهيد حسن البنا ، الذي آتاه الله من المواهب والملكات ما تفرق في عدد من الشخصيات ، فقد جمع بين العلم والتربية ، ومزج بين الفكر والحركة ، وربط بين الدين والسياسة ، ووصل بين الروحانية والجهاد ، وكان النموذج الحي للرجل القرآني ، والمعلم الرباني ، والمجاهد الإسلامي ، والداعية العصري ، والمنظم الحركي ، والمناضل السياسي ، والمصلح الاجتماعي »[1] .

---

(١) (شمول الإسلام) ص ٦ - ٨ . طبعة القاهرة سنة ١٤١٥هـ سنة ١٩٩٥ م .

وهو يعلن عن إعجابه الشديد بالشيخ رشيد رضا ـ إمام إمامه حسن البنا ـ فيقول : « . . وأنا من أشد المعجبين بالشيخ رشيد ، وأعتبره أحد مجددى الإسلام ، وواحدا من أعلامه الراسخين فى العلم ، المستقلين فى الفكر ، المجتهدين فى الدين ، وقد كان لمجلته « المنار » وتفسيره ، وكتبه وفتاويه ، أثر لايجحد فى تنبيه الأمة الإسلامية من غفلتها ، وتحريرها من أغلال التقليد . . وتنقية الدين مما شابه من البدع . . والدعوة إلى الإسلام ، بوصفه عقيدة وشريعة وحضارة . . فهو فى طليعة دعاة السلفية . . الذين ناصروا المدرسة السلفية بالعقل والنقل ، وبالبينات التى تخاطب العقل المعاصر . . وتدعو إلى الإسلام كما أنزله الله فى كتابه ، وبعث به رسوله ، ﷺ »[٢] .

إنها مدرسة الإحياء الدينى والتجديد الإسلامى ، تمايزت فيها إسهامات العلماء والمفكرين والدعاة ، فى إطار الوسطية الإسلامية الجامعة بين مصادر العلم الإسلامى والمعرفة الإسلامية ـ كتابى الوحى والكون ـ وبين سبل المعرفة الإسلامية ـ العقل والنقل والتجربة والوجدان . .

---

(١) (فتاوى معاصرة) جـ ٢ ص ٨٣ . طبعة القاهرة سنة ١٤١٥هـ ـ سنة ١٩٩٤ م .

المشروع الفكرى للدكتور يوسف القرضاوى ، لايقف عند الكتب التى قدمها للمكتبة العربية الإسلامية - وهى التى قاربت التسعين كتابا - ترجم العديد منها إلى العديد من اللغات الإسلامية والأجنبية - وإن كانت هذه الكتب - وهى موضوع حديثنا - أهم ما فى هذا المشروع . .

ذلك أن مشروعه الفكرى ، كداعية . . فقيه . . وكمعلم . . وخطيب . . وكمحاور ومناظر . . ومجاهد ، قد مثّل ميدانا فسيحا متعدد الجبهات ، فجاء تجسيدا لحياة - لازالت دائمة العطاء - هى أشبه ما تكون بكتيبة فى جيش الإحياء الإسلامى المعاصر ، رابط ويرابط صاحبها على العديد من ثغور الإسلام ، مدافعا ومنافحا ، ومجتهدا لصياغة الإسلام مشروعا حضاريا متكاملا لإحياء الأمة بالإسلام ، وتجديد دنياها بدينها المتجدد دائما وأبدا . .

فعلى ثغرة الجهاد الحركى رابط الرجل سنوات وسنوات . . وهو رباط يستحق أن يكون موضوعا لـ « مذكرات » يتطلع إليها كثيرون . .

وعلى ثغرة الجهاد التربوى والتعليمى ، هناك شهود كثيرون من مواكب الطلاب ، الذين تتلمذوا على يديه . . ولقد تبوأ كثيرون منهم مقاعد الأستاذية والعطاء . .

وعلى ثغرة الجهاد الدعوى الجمهورى ، عرفته ساحات المساجد ومنابرها ، وأجهزة الإعلام ، على تنوعها ، فارسا من فرسان هذا الميدان ، تعلقت به فيها الجماهير العريضة على امتداد عالم الإسلام ، وخارج عالم الإسلام حيث الأقليات الإسلامية فى مختلف القارات والبلاد . .

لكن حديث هذه الصفحات سيقف عند المشروع الفكرى للرجل كما جسدته مؤلفاته التى قامت ركنا من أركان المكتبة الإسلامية المعاصرة .. وهو حديث لايطمح إلى دراسة تفصيلية ومعمقة - فلو نهض مثلى من عارفى فضل الدكتور يوسف وخطر مشروعه الفكرى بهذه الدراسة المعمقة ، لاحتاج الأمر إلى سفر كبير - وإنما الهدف الذى نحن بصدده هو تحديد « خارطة » لمعالمه ، ربما أشبهت ، فى فن التأليف ، المقدمات فى تصنيف العلوم والفنون . . فهى أشبه بالتقديم للمشروع الفكرى منها بالدراسة له . . وأقرب إلى ترتيب معالمه منها بالتقويم لما فى هذه المعالم من رؤى واجتهادات . . وهى إشارات إلى موقعه من حياتنا الفكرية المعاصرة ، دون أن تغوص فى تفاصيل معالم هذا الموقع وقضاياه . .

ثم إن مشروع الرجل - مد الله فى عمره - لايزال كتابا مفتوح الصفحات . . يعيش ذروة النضج الفكرى . . والغزارة فى الإنتاج . . فالحديث - هنا - إنما هو عن « خارطة » تشهد المزيد والمزيد من المساحات فى كل عام . . ونتمنى لها المزيد والمزيد من الغنى بالمعالم والقسمات ، والتَزيّن بالجديد من الاجتهادات . .

* * *

وفى « خارطة » هذا المشروع الفكرى نستطيع أن تصنّف الكتابات التى توجهت إلى :

● خدمة لباب الإسلام : العقيدة . . والشريعة . . والعبادة . . والأخلاق . . وفيها قدم الدكتور يوسف خمسة عشر كتابا . .

تناولت جوهر الإسلام ، عقيدة وشريعة وقيما وأخلاقا ومناسك وعبادات .. وتحدثت عن مقاصد الشريعة ، وتحقيق المصالح .. وعن المصادر الأصلية للشريعة - كتابا وسنة - وعن مصادرها الفرعية ، ذات الصلة بالمصادر الأصلية - إجماعا وقياسا - وعن عوامل السعة فى الشريعة الإسلامية - من القياس والاستحسان والاستصلاح والعرف - وعن خصائص الشريعة - الربانية ، والأخلاقية ، والواقعية ، والإنسانية ، وما فيها من تناسق وشمول - وعن ثبات القيم والأخلاق ، وخصائصها وثمراتها .. وعن العبادات ، ودورها الروحى فى الإحياء للذين يتعبدون بها الواحد المعبود ..

عن هذه المحاور ، التى هى لباب الدين ، تحدث الدكتور يوسف فى مؤلفاته :

١ - (وجود الله) ..

٢ - و (حقيقة التوحيد) ..

٣ - و (مدخل لمعرفة الإسلام) : مقوماته .. خصائصه .. أهدافه .. مصادره .

٤ - و (الخصائص العامة للإسلام) ..

٥ - و (الإيمان والحياة) ..

٦ - و (موقف الإسلام من الإلهام .. والكشف .. والرؤى .. ومن التمائم .. والكهانة .. والرقى) ..

٧ - و (شريعة الإسلام) ..

٨ ـ و (مدخل لدراسة الشريعة الإسلامية) . .

٩ ـ و (عوامل السعة والمرونة فى الشريعة الإسلامية) .

١٠ ـ و (شريعة الإسلام صالحة للتطبيق فى كل زمان ومكان) . .

١١ ـ و (العبادة فى الإسلام) . .

١٢ ـ و (الدين فى عصر العلم) . .

١٣ ـ و (الحياة الربانية والعلم) . .

١٤ ـ و (النية والإخلاص) . . .

١٥ ـ و (التوكل) . .

● ولهذا الدين الإسلامى ـ العقيدة . . والشريعة . . والعبادة . . والأخلاق ـ مرجعية إلهية معصومة ، تمثلت وتتمثل فى الوحى الإلهى : القرآن الكريم ، الذى هو بلاغ الله إلى العالمين . . وفى السنة النبوية الشريفة ، التى هى البيان النبوى للبلاغ القرآنى . .

وعن هذه المرجعية ـ القرآن . . والسنة ـ وعن علومهما . . قدم الدكتور يوسف ـ فى مشروعه الفكرى ـ هذه الكتب العشرة :

١٦ ـ (المرجعية العليا فى الإسلام للقرآن والسنة) ضوابط ومحاذير فى الفهم والتفسير . .

١٧ ـ و (العقل والعلم فى القرآن الكريم) . .

١٨ ـ و (الصبر فى القرآن الكريم) . .

١٩ ـ و (تفسير سورة الرعد) ..

٢٠ ـ و (مدخل لدراسة السنة) ..

٢١ ـ و (كيف نتعامل مع السنة النبوية) معالم وضوابط ..

٢٢ ـ و (السنة النبوية مصدرا للمعرفة والحضارة) ..

٢٣ ـ و (الرسول والعلم) ..

٢٤ ـ و (المنتقى من كتاب : الترغيب والترهيب ، للمنذرى) ـ انتقاء ، وتقديم ، وتعليق ، وفهرسة ـ جـ ١ ، ٢ .

٢٥ ـ و (نحو موسوعة للحديث النبوى : مشروع منهج مقترح) ..

● أما فى الفقه ـ بمعناه الواسع ـ وهو الميدان الأول من ميادين الجهاد الفكرى للدكتور يوسف ـ فلقد قدم الرجل للمكتبة الإسلامية ثمانية وأربعين كتابا .. تناولت الفقه وأصوله .. وفقه السلوك ، فى ضوء القرآن والسنة .. والإحياء الفقهى ، بالجمع بين العقل والقلب والنص ، لإزالة الفصام النكد بين العقل والقلب ، ذلك الذى حول الفقه إلى شكل بلا مضمون ، وآليات بلا مقاصد ، وقوالب بلا روح .. وفقه الواقع المادى ـ فقه الاقتصاد والثروة والمال ــ وفقه الدعوة ، والتربية ، وترشيد الصحوة الإسلامية المعاصرة ..

فى هذا الميدان الفقهى ، بهذا المعنى الواسع ، قدم هذا المشروع الفكرى ثمانية وأربعين كتابا منها اثنى عشر كتابا فى الفقه ـ بالمعنى الاصطلاحى ـ وفى أصوله .. ومشكلاته .. هى :

٢٦ ـ (الاجتهاد فى الشريعة الإسلامية) ..

٢٧ ـ و (الاجتهاد المعاصر بين الانضباط والانفراط) ..

٢٨ ـ و (الفتوى بين الانضباط والتسيب) ..

٢٩ ـ و (فى فقه الأولويات : دراسة جديدة فى ضوء القرآن والسنة) ..

٣٠ ـ و (الحلال والحرام فى الإسلام) ...

٣١ ـ و (فقه الصيام) ..

٣٢ ـ و (جريمة الردة .. وعقوبة المرتد فى ضوء القرآن والسنة) ..

٣٣ ـ و (ظاهرة الغلو فى التكفير) ..

٣٤ ـ و (فتاوى المرأة المسلمة) ..

٣٥ ـ و (النقاب للمرأة بين القول ببدعيته .. والقول بوجوبه) ..

٣٦ ـ و (فتاوى معاصرة) جـ ١ ، ٢ .

٣٧ ـ و (الفقه الإسلامى بين الأصالة والتجديد) ..

ومنها خمسة كتب فى فقه الاقتصاد الإسلامى .. هى :

٣٨ ـ (فقه الزكاة) جـ ١ ، ٢ .

٣٩ ـ و (عوامل نجاح مؤسسة الزكاة فى التطبيق المعاصر) ..

٤٠ ـ و (مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام) ..

٤١ ـ و (فوائد البنوك هى الربا الحرام) دراسة فقهية فى ضوء القرآن والسنة والواقع ..

٤٢ ـ و (دور القيم والأخلاق فى الاقتصاد الإسلامى) ..

أما فقه الدعوة . . والتربية . . وترشيد الصحوة الإسلامية ، فكان نصيبه فى هذا المشروع الفكرى واحدا وثلاثين كتابا . . هى :

٤٣ ـ (شمول الإسلام) فى ضوء شرح مفصل للأصول العشرين للإمام الشهيد حسن البنا .

٤٤ ـ و (التربية الإسلامية ومدرسة حسن البنا) . .

٤٥ ـ و (أولويات الحركة الإسلامية فى المرحلة القادمة) . .

٤٦ ـ و (الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم) . .

٤٧ ـ و (الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف) . .

٤٨ ـ و (الصحوة الإسلامية وهموم الوطن العربى الإسلامى) . .

٤٩ ـ و (الصحوة الإسلامية بين الآمال والمحاذير) . .

٥٠ ـ و (من أجل صحوة راشدة ، تجدد الدين وتنهض بالدنيا) . .

٥١ ـ و (الثقافة العربية الإسلامية بين الأصالة والمعاصرة) . .

٥٢ ـ و (أين الخلل ؟) . .

٥٣ ـ و (ثقافة الداعية) . .

٥٤ ـ و (الإسلام والفن) . .

٥٥ ـ و (الوقت فى حياة المسلم) . .

٥٦ ـ و (مركز المرأة فى الحياة الإسلامية) . .

٥٧ ـ و (لماذا الإسلام ؟) . .

٥٨ ـ و (واجب الشباب المسلم اليوم) ..

٥٩ ـ و (مسلمة الغد) ..

٦٠ ـ و (الإسلام الذى ندعو إليه) ..

٦١ ـ و (التربية عند الإمام الشاطبى) ..

٦٢ ـ و (الناس والحق) ..

٦٣ ـ و (قيمة الإنسان وغاية وجوده فى الإسلام) ..

٦٤ ـ و (المبشرات بانتصار الإسلام) ..

٦٥ ـ و (نساء مؤمنات) ..

٦٦ ـ و (رسالة الأزهر بين الأمس واليوم والغد) ..

٦٧ ـ و (درس النكبة الثانية : لماذا انهزمنا .. وكيف ننتصر؟) ..

٦٨ ـ و (الإمام الغزالى بين مادحيه وناقديه) ..

٦٩ ـ و (الشيخ الغزالى كما عرفته : رحلة نصف قرن) ..

٧٠ ـ و (خطب الشيخ القرضاوى) ..

٧١ ـ و (قضايا معاصرة على بساط البحث) ..

٧٢ ـ و (لقاءات ومحاورات حول قضايا الإسلام المعاصر) ..

٧٣ ـ و (قطوف دانية من الكتاب والسنة) ..

● ورغم أن هذا الذى سبقت الإشارة إليه ـ من مفردات المشروع الفكرى للدكتور يوسف القرضاوى ـ إنما يمثل لبنات فى

صياغة الإسلام مشروعا حضاريا نهضويا ـ كما تصوره الرجل - إلا أن انشغاله بما يمكن أن نسميه « فقه المشروع الحضارى » ، كبديل عن مشروع الاستلاب الحضارى الغربى ، الذى فرض على أمتنا ، بالاستعمار والتغريب ، قد جعله يخصص ـ فى مشروعه الفكرى ـ تسعة كتب لهذا الموضوع . . قدم فيها الإسلام بديلا حضاريا متميزا عن النموذج الحضارى الغربى . . وفيها إضاءات لمعالم هذا البديل الإسلامى . . ومحاورات مع العلمانيين والمتغربين حول هذه القضايا . . وهى حوارات تنهض بدور هام فى تصحيح المفاهيم ، وفى التأكيد على حتمية الحل الإسلامى لما تعانيه الأمة من مأزق حضارى يأخذ منها بالخناق . .

فى فقه المشروع الحضارى الإسلامى . . قدم الدكتور يوسف ـ ضمن مشروعه الفكرى ـ هذه المؤلفات :

٧٤ ـ (الأمة الإسلامية حقيقة لا وهم) . .

٧٥ ـ و (الإسلام حضارة الغد) . .

٧٦ ـ و (ملامح المجتمع المسلم الذى ننشده) . .

٧٧ ـ و (الحل الإسلامى فريضة وضرورة) . .

٧٨ ـ و (بينات الحل الإسلامى وشبهات العلمانيين والمتغربين) . .

٧٩ ـ و (الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا) . .

٨٠ ـ و (الإسلام والعلمانية وجها لوجه) . .

٨١ ـ و (الأقليات والحل الإسلامى) . .

٨٢ ـ و (غير المسلمين فى المجتمع الإسلامى) . .

● وإذا كانت روح الأديب وثقافته وأسلوبه ملحوظة فى كل الأعمال الفكرية للدكتور يوسف القرضاوى ، فإن مشروعه الفكرى قد شهد أعمالا أدبية أربعة ، اختصت بها إبداعاته الشعرية والأدبية .. فهو داعية فقيه ، وأديب ، لايخاصم الجماليات التى زين الله بها هذا الوجود .. فلقد حباه الله عقل شاعر ، وقلب مفكر ، ووجدان فقيه ..

وغير سريان هذا المزيج فى الكثير من كتاباته .. وغير ماكتبه فى كتابه (الإسلام والفن) وفى العديد من فتاواه عن انتصار الإسلام للآداب والفنون الرفيعة .. فلقد اختصت إبداعاته الشعرية والأدبية بهذه الكتب :

٨٣ ـ (نفحات ولفحات) ـ وهو ديوان شعر ..

٨٤ ـ و (المسلمون قادمون) ـ وهو ديوان ثان من أشعاره ..

٨٥ ـ و (يوسف الصديق) ـ وهى مسرحية شعرية ..

٨٦ ـ و (عالم وطاغية) ـ وهى مسرحية تاريخية ..

تلك هى « خارطة » المشروع الفكرى لهذا الداعية الفقيه .. أشرنا فيها ـ مجرد إشارات ـ إلى معالمها ، تلك التى مثلت وتمثل هموم المفكر المجاهد المرابط على ثغور الإسلام ، فى مواجهة أشرس التحديات ـ الداخلية منها والخارجية ـ وهو مشروع ، يمثل فى حياتنا الفكرية المعاصرة كتيبة من كتائب الجهاد الفكرى ، المجددة لدين الإسلام كى تتجدد به دنيا المسلمين .. بل دنيا العالمين أجمعين !

أما إذا شئنا إشارات إلى نماذج ـ مجرد إشارات إلى مجرد نماذج ـ من القضايا والمشكلات والسمات والقسمات التى وقف عندها الدكتور يوسف القرضاوى ، متخذا منها سبلا لإحياء العقول والقلوب بالإسلام . . وأبوابا إلى ميادين صياغة مواكب الصحوة الإسلامية وإنارة طريق عملها بالإسلام . . أى بعض من «القضايا ـ المعالم» على طريق النهوض الإسلامى ، فإننا واجدون من بين هذه القضايا :

١ ـ قضية : الانتماء إلى الأمة الإسلامية الواحدة .

٢ ـ قضية : الوسطية الإسلامية الجامعة .

٣ ـ قضية : الإحياء المعاصر للاجتهاد الإسلامى . .

٤ ـ قضية : منهاج التعامل مع القرآن الكريم .

٥ ـ قضية : منهاج التعامل مع السنة النبوية الشريفة . .

٦ ـ قضية : التجديد للفقه الإسلامى . .

٧ ـ قضية : الإفتاء الإسلامى المعاصر . .

٨ ـ قضية : الثقافة العربية الإسلامية . .

٩ ـ قضية : المشروع الحضارى الإسلامى . . بديلا عن المشروع الغربى العلمانى . .

١٠ ـ وأخيرا : تواضع العالم ، الذى يخشى الله سبحانه وتعالى ، عندما يتحدث عن نفسه . .

تلك نماذج من « القضايا - المعالم » - فى المشروع الفكرى لعالمنا الفاضل ، نقف أمامها بإشارات . .

مجرد إشارات :

● الانتماء إلى الأمة الإسلامية الواحدة :

صاحب هذا المشروع الفكرى ليست لديه « مشكلة » فى قضية « الانتماء » . . فهو ينتمى إلى الأمة الإسلامية ، التى بلورتها رسالة الإسلام . . فالإسلام قد أقام للانتماء جوامع خمسة موحدة للذين آمنوا بهذا الدين أو ارتضوا أن يستظلوا بظلاله الحضارية . . وحدة العقيدة . . ووحدة الشريعة . . ووحدة الأمة . . ووحدة الحضارة . . ووحدة الدار . . وتحت كل جامع من هذه «الجوامع الأصلية» تندرج تنوعات وتمايزات ودرجات من «الانتماءات الفرعية» ، التى لاتتناقض مع هذه الجوامع الأصلية ، وإنما تحتضنها هذه الأصول احتضان الأصول لفروعها . . فتمايز التصورات لايقدح فى وحدة العقيدة . . وتعدد المذاهب الفقهية يغنى ويثرى وحدة الشريعة . . والاختلاف فى الشعوب والقبائل واللغات - ومن ثم فى القوميات - لاينفى وحدة الأمة . . وتعدد الأقاليم والأقطار والولايات لايقطع روابط الوحدة عن دار الإسلام . .

بهذه الحقيقة الإسلامية يؤمن الدكتور يوسف . . بل لقد جعلها الرجل واحدة من المعارك الفكرية التى خاضها ضد المتغربين الذين استعاروا المفاهيم الغربية ، ذات الطابع العنصرى ، « للأمة » و«القومية» و « الدولة » فأقاموا التناقضات الوهمية بين العروبة والإسلام ، وبين تعدد الدول القطرية وبين وحدة دار الإسلام ، ومن ثم أنكروا وجود أمة إسلامية واحدة تنتمى إليها شعوب الإسلام وقوميات لغات أمته . .

جعل الدكتور يوسف هذه القضية - قضية وحدة الأمة الإسلامية - واحدة من معاركه الفكرية ضد مفاهيم التغريب والمتغربين، فكتب يقول: «إن الأمة الإسلامية حقيقة بكل معيار.. هى حقيقة بمنطق الدين ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا ﴾[1] .. «مثل أمتى كالمطر، لايُدْرَى أوّله خير أم آخره»[2] .. وهى حقيقة بمنطق التاريخ، فقد وُلدت مع الإسلام، ونمت بنموه واتسعت باتساعه.. وهى حقيقة بمنطق الجغرافيا.. فهى تعيش فى أقطار متصلة متشابكة، من المحيط الهادى إلى المحيط الأطلسى.. وهى حقيقة بمنطق الواقع.. فالشعور بوجود الأمة ووحدتها، والإحساس بآلامها وأفراحها، شعور سائد ومتغلغل فى كيان أبنائها وأعماق وجدانهم.. وهى حقيقة بمنطق الآخرين.. الذين يعرفون هذه الحقيقة حق المعرفة، وينظرون إلى المسلمين باعتبارهم أمة ذات عقيدة واحدة، وفلسفة كلية واحدة، وقيم أساسية مشتركة، وأصول فكرية وخُلقية جامعة، وتطلعات طموحة متلاقية.

وهى ضرورة بمنطق المصلحة المعاصرة، التى توجب البحث عن تكتل كبير، نستكثر به من قلة، ونعتز به من ذلة، ونقوى به من ضعف، ونأمن به من خوف..

وهذه الأمة الواحدة، ذات شعوب متعددة بتعدد الأجناس واللغات والأوطان ﴿ وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ﴾[3]، وتعدد

---

(١) البقرة: ١٤٣.

(٢) رواه أحمد والترمذى وابن حبان وأبو يعلى والطبرانى وأبو نعيم.

(٣) الحجرات: ١٣.

الشعوب والقبائل فى الأمة الإسلامية لايجعل منها مشكلة إذا كان الإسلام هو الموجه لها ، والحاكم لتصرفاتها ، فالإسلام يذيب الفوارق بين هذه الشعوب ، بعقائده وقيمه وأحكامه وآدابه ، ويصهر الجميع فى بوتقته ، ويكون اختلافهم فى هذه الحال اختلاف تنوع وإثراء لا اختلاف تضاد وتصارع[1] . .

والإيمان « بالأمة » المؤسسة على عقيدة الإسلام ، وأخوة الإيمان ، والتى تضم جميع المسلمين فى رحابها حيث كانوا ، لاينفى أن هناك خصوصيات معينة لكل قوم ، يعتزون بها ويحافظون عليها ، ولايفرطون فيها . ولامانع من ذلك إذا لم تتحول إلى عصبية عرقية تقاوم أخوة الإسلام ، أو إلى نزعة أنانية انفصالية تهدد وحدة دولة الإسلام[2] . . ولذلك ، فلا تناقض فى ثقافتنا بين العروبة والإسلام[3] . . » .

وإذا كان الإسلام هو الجامع العقدى لأمة محمد ﷺ ، فإن حضارته قد غدت الجامع لكل الذين استظلوا بظلالها من غير المسلمين ، لهم مع المسلمين كامل حقوق المواطنة ، كأبناء أمة واحدة . . فغير المسلمين ، هم « بالتعبير الحديث » « مواطنون » فى الدولة الإسلامية ، أجمع المسلمون منذ العصر الأول إلى اليوم أن لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم ، إلا ما هو من شئون الدين والعقيدة ، فإن الإسلام يتركهم وما يدينون »[4] .

---

(١) (الأمة الإسلامية حقيقة لا وهم) ص ١٠ - ١٩ . طبعة القاهرة سنة ١٤١٥هـ - سنة ١٩٩٥ م .

(٢) (شمول الإسلام) ص ٩١ طبعة القاهرة سنة ١٤١٥هـ سنة ١٩٩٥ م .

(٣) (الثقافة العربية الإسلامية بين الأصالة والمعاصرة) ص ١٧٨ . طبعة القاهرة سنة ١٤١٤هـ سنة ١٩٩٤م .

(٤) (الحلال والحرام فى الإسلام) ص ٣٢٨ طبعة الدار البيضاء سنة ١٤٠٥ هـ سنة ١٩٨٥م .

فنحن أمام مشروع فكرى إسلامى، ينتمى صاحبه إلى الأمة الإسلامية الواحدة.. ويتوجه به إلى هذه الأمة الواحدة.. حتى لقد جعل وحدة هذه الأمة معركة من المعارك الفكرية لهذا المشروع..

* * *

الوسطية الإسلامية الجامعة:

وإذا كانت الوسطية - بالمعنى الإسلامى المتميز، والجامع - هى واحدة من أخص خصائص الأمة الإسلامية، حتى لقد تحدث عنها القرآن الكريم باعتبارها « جعلا إلهيا » ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطا ﴾[1] فلقد رأينا لها مكانا ملحوظا فى المشروع الفكرى للدكتور يوسف.. حتى لقد مثلت مزاج هذا المشروع، والمعيار الحاكم لاجتهادات وتجديدات صاحبه.. فالرجل داعية للوسطية الإسلامية، وهذا المشروع الفكرى الذى أبدعه هو واحد من مشاريع فكر الوسطية الإسلامية، التى برئت من غلوى الإفراط والتفريط، وجمعت ووازنت بين عناصر الحق والعدل والاعتدال فى كل القضايا والفتاوى والاجتهادات..

فالوسطية، هى منهاج النبوة: « منهج وسط، لأمة وسط.. منهج يتميز بالتوازن، فهو يوازن بين الروح والجسد، بين العقل والقلب، بين الدنيا والآخرة، بين المثال والواقع، بين النظر والعمل، بين الغيب والشهادة، بين الحرية والمسئولية، بين الفردية والجماعية، بين الاتباع والابتداع »[2].

---

(١) البقرة: ١٤٣.

(٢) (كيف نتعامل مع السنة النبوية) ص ٢٤. طبعة القاهرة سنة ١٤١١هـ سنة ١٩٩٠م.

وهذه الوسطية الإسلامية جامعة بين العقل والشرع ، على النحو الذى يجعل نورهما نورا على نور . . « فالعقل قد غطى كل جوانب الكون ، علويه وسفليه ، الإنسان بحاضره وماضيه ، آيات الله الكونية والتنزيلية ، فمن لم يستخدم عقله فى هذه النواحى كلها ، كان خليقا ألا يهتدى إلى الحق ، وأن يسير فى ركاب أهل الضلال والإضلال ، وأن يقول مع أهل الشقاء فى النار يوم القيامة ما حكاه الله عنهم : ﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾[1] . . »[2] .

والمقابل المناقض للعقل - فى الوسطية الإسلامية - ليس «النقل . . والشرع» ، وإنما هو «الجنون» ، الذى ليس معه «عقل» ، ولا «نقل» ، وإنما هو مسقط لكل «تكليف» ! . . ولذلك ، فإن هذه الوسطية الإسلامية الجامعة يتزامل فيها ويمتزج «العقل» و «النقل» و«النقل» و «القلب» جميعا . . ومن هنا ، « فإن ما أوهمه بعض الكتاب من أن البيئة الدينية لاتهيئ لمناخ علمى مزدهر ، بافتراض وجود صراع بين النقل والعقل ، أو بين النص الآلهى والاجتهاد الإنسانى ، غير صحيح ، بل ترده النصوص ، ويرده التاريخ ، ويرده الواقع ، فالعقل هو المخاطب بنص الشارع ، والمكلف بفهمه والعمل به ، والاجتهاد فى دلالته ، وملء الفراغ فيما لانص فيه . وقد ترك النقل - أو الوحى - للعقل شئون الكون والحياة كلها يصول فيها ويجول ، ولم يحجر عليه فى ذلك ، بل أمره وحرضه ودعاه .

---

(١) الملك : ١٠ ، ١١ .

(٢) (العقل والعلم فى القرآن الكريم) ص ٢١ . طبعة القاهرة سنة ١٤١٦هـ ١٩٩٦ م .

والمحققون من علماء الأمة اعتبروا الوحى والعقل هاديين للخلق إلى الحق . يقول الإمام الراغب الأصفهانى فى كتابه القيم (الذريعة إلى مكارم الشريعة) : «لله ، عز وجل ، إلى خلقه رسولان ، أحدهما : من الباطن ، وهو العقل ، والثانى : من الظاهر ، وهو الرسول ، ولاسبيل لأحد إلى الانتفاع بالرسول الظاهر مالم يتقدمه الانتفاع بالباطن ، فالباطن يعرف صحة دعوى الظاهر ، ولولاه لما كانت تلزم حجة بقوله ، ولهذا أحال الله من يشكك فى وحدانيته وصحة نبوة أنبيائه على العقل ، فأمره أن يفزع إليه فى معرفة صحتها . فالعقل قائد والدين مدد ، ولو لم يكن العقل لم يكن الدين باقيا ، ولو لم يكن الدين لأصبح العقل حائرا ، واجتماعهما كما قال الله تعالى : (نور على نور)[1] ..»[2] ..

ولذلك ، « لاعجب أن يتفق العقل والنقل ، ويلتقى العقل الصريح والنقل الصحيح لا محالة ، لأن كليهما أثر من آثار رحمة الله بعباده وبره بهم ونعمته عليهم ، وآثاره لاتتناقض ، فإن بدا لناشىء من التناقض بين العقل والنقل ، فلابد أن يكون النقل غير صحيح أو العقل غير صريح ، كما أوضح شيخ الإسلام ابن تيمية فى كتابه (موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول)[3] ..» .

وبهذه الوسطية الإسلامية الجامعة - التى طبعت المشروع الفكرى للدكتور يوسف - كانت إبداعاته إسهاما كبيرا فى إحياء علوم الدين ، بإعادة اللحمة بين القلب والعقل .. بين التصوف والشرع .. بل بين السلفية والصوفية فى علوم الإسلام ..

---

(١) النور : ٣٥ - ونص الراغب فى كتابه - بتحقيق : د . أبو اليزيد العجمى - ص ٢٠٧ . طبعة دار الصحوة . القاهرة .

(٢) (الثقافة العربية الإسلامية بين الأصالة والمعاصرة) ص ١٠٦ ، ١٠٧ .

(٣) (ثقافة الداعية) ص ١٢٩ . طبعة بيروت سنة ١٤١٢هـ سنة ١٩٩١م .

فالفقه ، الذى يزكيه الدكتور يوسف ، هو « فقه » العبادة ، وليس - فقط - « علم » العبادة . . « فهدفنا من هذا التعليم والتفقيه أن نحبب رب الناس إلى الناس ، حتى يعبدوه عبادة حب وشكر وإقبال ، لاعبادة مراسم وقوالب وأشكال . . أن نوجههم إلى روح العبادة ، لا صورة العبادة فحسب ، وبعبارة أخرى : أن يكون همنا « فقه » العبادة لا « علم » العبادة . والفقه معنى فوق العلم ، والتفقيه أخص من التعليم . العلم يتعلق بالعقول والرءوس ، والفقه يتجاوز ذلك إلى القلوب والنفوس . والرسول ، ﷺ ، إنما ناط الخير بالفقه فى الدين لا بمجرد العلم الظاهرى الجاف به ، قال : « من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين »[1] . . غير أن مفهوم الفقه هذا أصابه من التغيير ما جعل مؤداه مجرد العلم الجاف بتقصى التفريعات الظاهرة ، والأحكام الخلافية . وكثير من الفروض والمسائل الدقيقة التى تعد من الأغاليط أو من التنطع . . إن فقه الصلاة مثلا ، هو إدراك سرها ، والنفوذ إلى لبها وروحها ، وعلم الصلاة هو المعرفة الجافة بشرائطها وأركانها وواجباتها ومستحباتها . . والذى نريده بفقه العبادة إنما هو الفقه كما كان فى العصر الأول ، هو الفقه الذى يرقق القلوب ويطهر النفوس ، ويذكر بالآخرة ، ويضىء الطريق إلى الله . . »[2] .

وكما دعا الدكتور يوسف - بهذه الوسطية - إلى تزامل العقل والنقل . . وامتزاج العقل والقلب . . فلقد دعا إلى تزامل القلب والنص ، والمصالحة بين الصوفية والسلفية . . « فمن الخير أن نطعّم

---

(١) رواه البخارى .

(٢) (العبادة فى الإسلام) ص ٣٠٠ - ٣٠٢ طبعة بيروت سنة ١٤١٣هـ سنة ١٩٩٣م .

كل واحد من الصنفين أو الطرفين - (السلفية - والصوفية) - بالمزايا التى عند الطرف الآخر، وهو ما عبر عنه المفكر المسلم محمد المبارك، رحمه الله، بقوله: « نُسَلِّف الصوفية ، ونُصَوِّف السلفية»! . وبهذا التطعيم ينشأ صنف جامع لمزايا الفئتين، منزه عن عيوب كل منهما . .»[1] .

ولذلك، وجدنا الدكتور يوسف يميز فى تراث التصوف بين فكر «الحلول» و «وحدة الوجود» - الذى رفضه - وبين التصوف الشرعى، الذى هو علم الخلق، ومرتبة الإحسان التى تبلغها أعمال المحسنين . . « فالتصوف الفلسفى، القائم على فكرة «الحلول» و «وحدة الوجود» كله مرفوض . والذى يعنينا من التصوف هو الجانب الأخلاقى والتربوى، الذى قال فيه ابن القيم - فى (المدارج) - : «اجتمعت كلمة الناطقين فى هذا العلم على أن التصوف هو الخلق» . . فيجب أن ننتقى من التصوف ما يخدم العقيدة الإسلامية، والأخلاق الإسلامية، وندع كل ما فيه شائبة أو ريبة . . والصوفية الأوائل، الذين وضعوا أسس التصوف ومهدوا طريقه، رفضوا كل محاولة لإخراجه عن الشرع، وأبوا إلا تقييده بالقرآن والسنة . وفى التصوف لفتات روحية مشرقة فى فهم الآيات والأحاديث . . وفى أقوال أهله حرارة وحيوية يلمسها قارئها . . فقد عنوا بأحكام الباطن، حين عنى الفقهاء بأحكام الظاهر المُحَسّ، والمتكلمون بالجانب العقلى الجاف[2] . . إن التصوف، باعتباره تراثا فى التربية والسلوك الإيمانى ، لايمكن الاستغناء عنه ، كما لايمكن الاستغناء عن تراث الفقه فى معرفة الأحكام الظاهرة . .»[3] .

---

(١) (الحياة الربانية والعلم) ص ٢٢ طبعة القاهرة سنة ١٤١٦هـ سنة ١٩٩٥م .

(٢) (ثقافة الداعية) ص ٩٥ ، ٩٦ .

(٣) (الحياة الربانية والعلم) ص ١٥ .

وبهذه الوسطية الإسلامية الجامعة بين العقل والنقل .. بين العقل والقلب .. بين السلفية والصوفية . دعا الدكتور يوسف إلى الجمع بين السلفية والتجديد « فلا تنافى بين هذه السلفية والتجديد ، بل هناك تلازم بينهما ، فالسلفية الحقة لاتكون إلا مجددة ، والتجديد الحق لايكون إلا سلفيا ..»[1] .. ذلك أن التجديد هو العودة إلى المنابع ، لرؤيتها بعقل معاصر - وتلك هى السلفية المجددة ، التى ميزت تيار التجديد فى حضارتنا على امتداد تاريخ الإسلام ..

وانطلاقا من هذه الحقيقة - من حقائق الوسطية الإسلامية الجامعة - صاغ الدكتور يوسف «أصول المنهج السلفى الحق - فكانت :

١ - الاحتكام للنصوص المعصومة لا لأقوال الرجال .

٢ - ورد المتشابهات إلى المحكمات ، والظنيات إلى القطعيات .

٣ - وفهم الفروع والجزئيات فى ضوء الأصول والكليات .

٤ - والدعوة إلى الاجتهاد والتجديد ، وذم الجمود والتقليد .

٥ - والدعوة إلى الالتزام لا التسيب فى مجال الأخلاق .

٦ - والدعوة إلى التيسير لا التعسير فى مجال الفقه .

٧ - والدعوة إلى التبشير لا التنفير فى مجال التوجيه .

٨ - والدعوة بغرس اليقين لا بالجدل فى مجال العقيدة .

٩ - والعناية بالروح لا بالشكل فى مجال العبادة .

---

(١) (أولويات الحركة الإسلامية فى المرحلة القادمة) ص ١٠٨ . طبعة بيروت سنة ١٤١٢هـ سنة ١٩٩٢م .

١٠ ـ والدعوة إلى الاتباع فى أصول الدين ، والاختراع فى أمور الدنيا . .»[١] .

وبهذه الوسطية ، أيضا ، تآخى « العلم » و « الدين » فى ثقافة الإسلام . . وبعبارة الدكتور يوسف « فإن العلم عندنا دين ، والدين عندنا علم ! .

أما أن العلم عندنا دين ، فإن كتاب ربنا وسنة نبينا ، يدعواننا إلى العلم ، ويعتبرانه عبادة وفريضة ، سواء أكان علم دين أم علم دنيا ، علما مصدره الوحى ، أم علما مصدره الكون . .

وأما أن الدين عندنا علم ، فلأنه لايقوم على التقليد . . بل يحارب القرآن التقليد الأعمى والتبعية المطلقة للآخرين ، وينادى كل ذى عقيدة أن يبنى عقيدته على البرهان واليقين ، لا على الظن والتخمين ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾[٢] ﴿ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾[٣] . .»[٤] .

ولهذه الحقيقة من حقائق علاقة الدين لإسلامى بالعلم ، كانت العقلية الإسلامية « عقلية علمية موضوعية » « لاتقبل نتائج بلا مقدمات ، ولاتخضع إلا للحجة والبرهان . . وقد وضح القرآن والسنة المعالم الأساسية التى تقوم عليها هذه العقلية العلمية ، ونستطيع أن نوجزها فى النقاط التالية :

---

(١) المرجع السابق . ص ١٠٣ .

(٢) البقرة : ١١١ .

(٣) الأنعام : ١٤٨ .

(٤) (العقل والعلم فى القرآن الكريم) ص ٩٦ ، ٩٧ .

١ ـ ألا تُقبل دعوى بغير دليل مهما كان قائلها ، والدليل هو : البرهان النظرى فى العقليات ﴿ قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ﴾[١] والمشاهدة أو التجربة فى الحسيات ﴿ وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا أشهدوا خلقهم ﴾[٢] وصحة الرواية وتوثيقها فى النقليات ﴿ ائتوني بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين ﴾[٣] .

٢ ـ رفض الظن والعواطف والأهواء فى كل موضع يطلب فيه اليقين الجازم ، والعلم الواثق ﴿ وما لهم به من علم إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغني من الحق شيئا ﴾[٤] ﴿ إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ﴾[٥] .. « إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث »[٦] .

٣ ـ الثورة على الجمود والتقليد والتبعية الفكرية للآخرين ﴿ بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون ﴾[٧] .. « لا يكن أحدكم إمعة ، يقول : إن أحسن الناس أحسنت ، وإن أساءوا أسأت ، ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا ، وإن أساءوا ألا تظلموا »[٨] .

---

(١) النمل : ٦٤ .
(٢) الزخرف : ١٩ .
(٣) الأحقاف : ٤ .
(٤) النجم : ٢٨ .
(٥) النجم : ٢٣ .
(٦) رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والإمام أحمد .
(٧) البقرة : ١٧٠ .
(٨) رواه الترمذى .

٤ ـ الاهتمام بالنظر والتفكير والتأمل ﴿ في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء ﴾[١] وفى الإنسان نفسه ، فهو عالم وحده ﴿ وفي أنفسكم أفلا تبصرون ﴾[٢] وفى سير التاريخ البشرى ، ومصاير الأمم ، وسنن الله فى الاجتماع الإنسانى ﴿ قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴾[٣] . .»[٤] .

تلك هى سمات العقلية الإسلامية العلمية ، كما صاغتها الوسطية الإسلامية الجامعة بين العلم والدين . .

وبالوسطية الإسلامية الجامعة ، تتزامل « الرواية » و «الدراية» فى مأثورات الثقافة الإسلامية . . « فأقوم المناهج ما مزج بين الرواية والدراية ، وجمع بين صحيح المنقول وصريح المعقول ، وألف بين تراث السلف ومعارف الخلف»[٥] . . متجاوزا الثنائية المفتعلة بين « الرأى » و « الأثر » فى التعامل مع المرويات . .

وإذا كانت الحداثة الغربية ـ وهى المؤسسة على «التنوير الغربى . . الوضعى . . العلمانى» ـ إنما تقيم قطيعة معرفية مع الموروث ، ومع الموروث الدينى على وجه الخصوص . . **فإن الوسطية الإسلامية الجامعة تؤلف بين ما يسميه الدكتور يوسف «القديم النافع» و«الجديد الصالح»** دونما تعصب لأى منهما . . «فلقد شهد عصرنا

(١) الأعراف : ١٨٥ . (٢) الذاريات : ٢١ .

(٣) آل عمران : ١٣٧ .

(٤) (الرسول والعلم) ص ٣٨ ـ ٤٠ طبعة بيروت سنة ١٤١١هـ سنة ١٩٩١م .

(٥) (المرجعية العليا فى الإسلام للقرآن والسنة) ص ٤١ . طبعة القاهرة سنة ١٩٩٢م .

صراعا مريرا بين القديم والجديد ، تمخض عن فئات ثلاث من الناس :
فئة تتشبث بالقديم كله ، على ما فيه من شوائب وانحرافات . .
وفئة تبنت الجديد كله ، بما فيه من نقائص وسيئات . .
وفئة وقفت موقف الوسط ، وقالت نتمسك بكل قديم نافع ، ونرحب بكل جديد صالح . .»[1] .

ثم يتحدث الدكتور يوسف عن منهجه الوسطى الجامع إزاء هذه الثنائية ، وعن موقعه بين فرقاء النزاع حول القديم والجديد ، فيقول : «لم أكن أقرأ الأقوال والنصوص قراءة المقلد المتحيز ، بل قراءة الفاحص الممحص ، الباحث عن الحق ، لايبالى أين وجده ، ولا مع من وجده ، قد يجده عند المتقدمين ، وقد يجده عند المتأخرين ، وقد يجده فى مدرسة الرأى ، وقد يجده فى مدرسة الحديث ، وقد يجده فى فقه الظاهرية ، وقد يجده فى المذاهب الأربعة ، وقد يجده عند غيرهم من الأئمة ، وما أكثرهم .

إننى لم أقف مع المتعصبين المتزمتين الجامدين على كل قديم ، والزاعمين بأن لا أئمة بعد الأربعة ، ولا اجتهاد بعد القرون الأولى ، ولا علم إلا فى كتب المتأخرين المقلدين ، ومن عارضهم فى ذلك اتهموه بكل نقيصة .

ومع هذا ، لم أكن لأنساق وراء أدعياء الاجتهاد الذين لم يملكوا وسائله ، ودعاة التجديد الذين سخر منهم الرافعى الأديب بأنهم «يريدون أن يجددوا الدين واللغة والشمس والقمر» !!

وإنما أقف موقفا وسطا عدلا : أرحب بكل جديد نافع ، وأحرص على كل قديم صالح . . وهكذا انتفعت بالقديم والجديد ، دون تزمت ولا تحلل . .»[2] .

---

(١) (الفتوى بين الانضباط والتسيب) ص ٦٣ . طبعة القاهرة سنة ١٤١٣هـ سنة ١٩٩٢ م .
(٢) (فقه الزكاة) جـ ١ ص ٢١ ، ٢٢ . طبعة بيروت سنة ١٤٠٥هـ سنة ١٩٨٥م .

ولهـذا الموقف الوسطى الجـامع ، الذى ينتـمى إلى الأمـة ، كل الأمة ، ويحتضن تراثها كله ، مختـارا منه الصالح والنافع ، دونما تعصب لمذهب أو فريق أو عصـر أو إمام . . توجه الدكتور يوسف بالنقد إلى :

المدرسة المذهبية : التى تحصر الاجتهاد المعاصر فى حدود مذهب لاتتعداه ، فلا تأخذ من المذاهب الأخرى . .

وإلى المدرسة الظاهرية الحديثة : المدرسة النصية الحرفية ، وجلهم ممن اشتغلوا بالحديث ، ولم يتمرسوا بالفقه وأصوله ، ولم يطلعوا على اختلاف الفقهاء ومداركهم فى الاستنباط ، ولايكادون يهتمون بمقاصد الشريعة وتعليل الأحكام ، ورعاية المصالح ، وتغير الفتوى بتغير الزمان والمكان والحال .

ومدرسة تبرير الواقع :

انتقد الدكتور يوسف هذه المدارس الثلاث ، لأنها انحازت إما للقديم وحده ، أو الجديد دون سواه . . إما للأثر وحده ، أو للرأى لاتتعداه . . ودعا إلى المدرسة الرابعة :

« مدرسة الوسط ، والاتجاه المتوازن ، الذى يجمع بين اتباع النصوص ورعاية مقاصد الشريعة ، فلا يعارض الكلى بالجزئى ، ولاالقطعى بالظنى ، ويراعى مصالح البشر ، بشرط ألا تعارض نصا صحيح الثبوت ، صريح الدلالة ، ولا قاعدة شرعية مجمعا عليها ، فهو يجمع بين محكمات الشرع ومقتضيات العصر »[1] .

* * *

(١) (الاجتهاد المعاصر بين الانضباط والانفراط) ص ٨٨ . طبعة القاهرة سنة ١٩٩٣م .

وهذه الوسطية الإسلامية الجامعة ، التى مثلت معلما من معالم المشروع الفكرى للدكتور يوسف القرضاوى ، وروحا سارية فى كل المواقف والقضايا والمشكلات التى عرض لها بالبحث والرأى والإفتاء ، قد استصحبها الرجل فى فقهه للواقع كما اعتمدها فى فقهه للأحكام .. فرأيناه ينظر بمنظارها إلى قضية موقف الإسلام من ملكية الثروات والأموال ، ذلك الموقف الذى لم يتحيز إلى الملكية الفردية بإطلاق .. ولا ضدها بإطلاق ، وإنما جمع - انطلاقا من فلسفته الاجتماعية المتميزة - بين الملكية الخاصة والملكية العامة فى الثروات والأموال .. « فالإسلام لايحمى كل ملكية ولو جاءت من طريق حرام ، وإنما يبسط حمايته على الملكية التى جاءت من طريق مشروع .. كما يقر الملكية الجماعية فى الأشياء الضرورية لجميع الناس .. ومن هنا أخرج الإسلام من نطاق الملكية الخاصة : الأشياء التى لايتوقف وجودها ولا الانتفاع بها على مجهود خاص ، ويكون جماهير الناس محتاجين إليها ، فجعل ملكيتها جماعية عامة ، حتى لايستبد بها فرد أو أفراد ، فيضار المجتمع من جراء ذلك ..

إن الحرية الاقتصادية المطلقة - أو شبه المطلقة - التى يحبذها الرأسماليون - كالمساواة الاقتصادية المطلقة التى يحلم بها الشيوعيون - كلتاهما ليست فضيلة محمودة ، بل رذيلة ممقوتة ، ولهذا ، فإن الإسلام حين أباح للإنسان حرية التملك لم يدع له الحبل على الغارب .. بل وضع حدودا للكسب والتملك ، وحدودا للتصرف فى الملك ، تثميرا أو استهلاكا ، وفرض حقوقا

معينة على المال المملوك إذا بلغ نصابا مقدرا ، وحقوقا أخرى يعينها ألو الأمر ، أو تحددها الضرورات والحاجات .. فقيد الإسلام من جموح الحرية الاقتصادية بما وضع من حدود وما فرض من حقوق ، وما ألزم من قيود ، أحل بها الحلال وحرم الحرام .. إنها حرية اقتصادية مقيدة بالعدل الذى فرضه الله ، وليست مطلقة كالتى توهمها قوم شعيب : (أن نفعل فى أموالنا ما نشاء)[1] ..»[2] .

***

هكذا مثلت الوسطية الإسلامية الجامعة واحدة من أهم القضايا ، ومعلما من أبرز المعالم ، وقسمة من أخطر القسمات فى المشروع الفكرى لعالمنا الفاضل الدكتور يوسف القرضاوى .. فضمنت لهذا المشروع الجمع بين السلفية فى الدين ، تلك التى تنطلق من المنابع الجوهرية والنقية للمرجعية الإسلامية ، وبين التجديد لهذا الدين ، بالعقلانية الإسلامية المؤمنة التى تفقه الأحكام .. وتفقه الواقع المتجدد .. وتعقد القران بين فقه الواقع وفقه الأحكام ، لتحقق المصالح الشرعية المعتبرة ، وتستشرف المستقبل المنشور لأمة الإسلام .. ففيها وبها تجتمع وتتوازن الأصالة المتميزة .. والمعاصرة المتميزة .. والمستقبلية المتميزة جميعا ! ..

***

---

(١) هود : ٨٧ .

(٢) (دور القيم والأخلاق فى الاقتصاد الإسلامى) ص ١١٤ ، ١١٨ ، ٣٥٠ . طبعة القاهرة سنة ١٤١٥هـ سنة ١٩٩٥م .

فى الإسلام ، يتجاوز الموقف من « الاجتهاد » حدود كونه «حقا» من حقوق العقل المسلم ، إلى حيث يجعل الإسلام منه «فريضة شرعية » و « واجبا دينيا » و « تكليفا إلهيا » لأمة الإسلام . . فهو من فروض الكفاية ، التى توجّه التكليف بها إلى الأمة ، والتى تأثم الأمة جمعاء إذا فرطت فى القيام بها وفى إقامتها . . ولذلك ، كانت هذه الفروض الكفائية - الاجتماعية - أخطر وأكد من فروض العين - الفردية - التى يقف الإثم على التفريط فيها عند الفرد المكلف لا يتعداه - ﴿ وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون ﴾[1] . .

ويزيد من خطر الاجتهاد فى الإسلام أنه هو طوق نجاة الشريعة الإسلامية من أن يتجاوز الواقع المتطور والمتغير أحكامها ، فتطوى صفحتها من الوجود ، بتحولها إلى « نص تاريخى » و « أثر متحفى » . . فلأن هذه الشريعة هى خاتمة شرائع السماء إلى الإنسان ، كان وقوفها فى التشريع - وخاصة للمعاملات الدنيوية - عند المبادئ والقواعد والكليات وفلسفة التشريع لما هو قابل للتطور والتغير ، عبر الزمان والمكان والأحوال - مع التفصيل فى أحكام الثوابت التى تمثل ثوابت الفطرة وجوهر الهوية لدى الإنسان السوى دائما وأبدا . . الأمر الذى جعل الاجتهاد الإسلامى هو السبيل

---

(١) التوبة : ١٢٢ .

لمد فروع الشريعة كى تظلل كل جديد ، على النحو الذى يضمن إسلامية الفقه والقانون دائما وأبدا ، ويحقق صلاحية الشريعة - التى هى وضع إلهى ثابت - لكل زمان ومكان وحال .. فبدون هذا الاجتهاد ، الذى يصبغ الفقه المتجدد بالصبغة الإلهية ، يطل علينا خطر انفلات القانون والفقه من هذه الصبغة الإلهية المتمثلة فى مبادئ وقواعد الشريعة وفلسفتها فى التشريع .. فهو - الاجتهاد - الضمان لخلود الشريعة الإسلامية ، ولتحقيق الإرادة الإلهية فى أن تكون الشريعة الخاتمة ، فى الأمة الخاتمة ، للرسالة الخاتمة .. رسالة نبينا محمد ، عليه الصلاة والسلام ..

ولذلك ، لم يكن غريبا أن نرى الاهتمام بقضية الاجتهاد الإسلامى .. إحياء له .. وتزكية لطريقه .. وضبطا لصناعته .. فى المشروع الفكرى للدكتور يوسف .. وهو المشروع الذى تغيا إحياء الإسلام لتحيا به الأمة الإسلامية ..

ففى مواجهة الذين تخيلوا للاجتهاد « بابا » قد تم إغلاقه ، يقول الدكتور يوسف : « إن القول بأن باب الاجتهاد قد أغلق ، مقولة يكذبها المنقول والمعقول والتاريخ والواقع . **ومن ذاالذى يملك إغلاق باب فتحه الله ورسوله**»[1] ؟!

ولذلك ، فإن القضية ليست الدعوة إلى فتح «باب» مغلق .. وإنما هى «**تجديد الاجتهاد**» ليكون قادرا - بثمراته الجديدة وأحكامه المتجددة - على الوفاء بتحقيق المصالح الشرعية للأمة فى ميادين المستجدات التى طرحها ويطرحها جديد الزمان والمكان والحال ..

---

(١) (الاجتهاد المعاصر بين الانضباط والانفراط) ص ١٩ .

وعن شروط تحقيق هذه « الضرورة . . ضرورة تجديد الاجتهاد » يقول الدكتور يوسف : « إن أول الشروط اللازمة لحسن تطبيق الشريعة فى عصرنا ، وأعظمها أهمية : هو فتح باب الاجتهاد من جديد للقادرين عليه ، والعودة إلى ما كان عليه سلف الأمة ، والتحرر من الالتزام المذهبى المتشدد ، فيما يتعلق بالتشريع للمجتمع كله . . إن باب الاجتهاد قد فتحه النبى ﷺ ، فلا يملك أحد أن يغلقه . . »[1] .

وإذا كان تراثنا الفقهى قد فصّل القول فى شروط الاجتهاد . . وميادينه . . وأنواعه ومراتبه . . فإن الدكتور يوسف يدعو إلى كل ألوان ومستويات الاجتهاد . . ففى المستجدات ، التى لم يعرفها السابقون ، ومن ثم لم تعرض لها المذاهب والاجتهادات الموروثة ، نحن فى حاجة إلى « **الاجتهاد الإنشائى** » الذى يستنبط الأحكام الجديدة من المصادر الأصلية ، والمتصلة بالأصلية ، للشريعة الإسلامية . . وفى الميادين التى يلبى حاجاتنا فيها «**الاجتهاد الانتقائى**» ، الذى يختار من الاجتهادات السابقة ، بعد المقارنة والترجيح ، يكون الطريق هو هذا « **الاجتهاد الانتقائى** » . . وقد يحتاج الأمر ، فى ميادين أخرى إلى الجمع بين « **الانتقاء** » و«**الإنشاء**» فى الاجتهاد الجديد والمعاصر . .

يتحدث الدكتور يوسف عن هذه القضية ، فيقول : « إن الاجتهاد المطلوب لعصرنا هو :

(١) (مدخل لدراسة الشريعة الإسلامية) ص ٢٧٣ ـ طبعة القاهرة سنة ١٩٩٠م .

١ ـ **الاجتهاد الانتقائى** : ونعنى به اختيار أحد الآراء المنقولة فى تراثنا الفقهى ، للفتوى أو القضاء به ، ترجيحا له على غيره من الآراء والأقوال الأخرى .. بأن نوازن بين الأقوال بعضها وبعض ، ونراجع ما استندت إليه من أدلة نصية أو اجتهادية ، لنختار فى النهاية ما نراه أقوى حجة وأرجح دليلا ، وفق معايير الترجيح ، ومنها : أن يكون القول أليق بأهل زماننا ، وأرفق بالناس ، وأقرب إلى يسر الشريعة ، وأولى بتحقيق مقاصد الشرع ، ومصالح الخلق ، ودرء المفاسد عنهم ..

٢ ـ **الاجتهاد الإنشائى** : ونعنى به استنباط حكم جديد فى مسألة من المسائل ، لم يقل به أحد من السابقين ، سواء كانت المسألة قديمة أم جديدة .. وأكثر ما يكون الاجتهاد الإنشائى فى المسائل الجديدة ، التى لم يعرفها السابقون ولم تكن فى أزمانهم ، أو عرفوها فى صورة مصغرة ، بحيث لاتكون مشكلة ولاتدفع الفقيه إلى البحث عن حل لها باجتهاد جديد ..

٣ ـ **الاجتهاد الجامع بين الانتقاء والإنشاء** : ومن الاجتهاد المعاصر ما يجمع بين الانتقاء والإنشاء معا ، فهو يختار من أقوال القدماء ما يراه أوفق وأرجح ، ويضيف إليه عناصر اجتهادية جديدة ..»[١] .

---

(١) (الاجتهاد المعاصر بين الانضباط والانفراط) ص ٢٠ ، ٣٢ ـ ٣٤ ، ٣٦ .

وإذا كان هذا هو موقف الدكتور يوسف من قضية الإحياء المعاصر للاجتهاد الإسلامي .. فإن ممارساته الفكرية ، كما تجسدت في مشروعه الفكرى ، قد جاءت ثمرة لهذا الموقف الاجتهادى ، فى القضايا التى عرض لها وكتب فيها .. فهو عالم رفض التقليد ، ومارس الاجتهاد .. ولم يقف ، فقط ، عند الإدانة القولية للتقليد ، أو التزكية النظرية للاجتهاد .. فهو يقول : « أنا لا أحسن التقليد ، ولم أحاول فى حياتى أن أكون نسخة من أحد»[1] .. ثم يؤكد على مذهبه « الوسطى - المنضبط » فى هذا الأمر ، فيقول : « إننى ضد الجمود والتقليد والتعصب ، ولكننى - بنفس القدر - ضد الانفراط والتحلل والتسيب ، إن الذى أؤمن به ، وأدعو إليه ، وأدافع عنه ، هو (المنهج الوسط) للأمة الوسط . هو الاجتهاد بكل أنواعه ودرجاته : كليا وجزئيا ، فرديا وجماعيا ، ترجيحيا وإنشائيا ، بشرط أن يصدر من أهله فى محله ، منضبطا بضوابطه الشرعية المعتبرة ، بعيدا عن غلو الغالين ، وتفريط المفرطين ..»[2] .

وانطلاقا من هذا المنهج ، وتطبيقا له ، جاء المشروع الفكرى للدكتور يوسف - فى الفقه .. والدعوة - واحدا من مشاريع الاجتهاد والتجديد فى ثقافتنا الإسلامية المعاصرة ..

* * *

---

(١) (تفسير سورة الرعد) ص ١٣ طبعة طنطا - مصر - سنة ١٤١٦هـ سنة ١٩٩٦م .

(٢) (الاجتهاد المعاصر بين الانضباط والانفراط) ص ٤ .

منهاج التعامل مع القرآن الكريم:

القرآن هو كلمة الوحى الإلهى الخاتمة إلى الإنسانية، المستخلفة لتقيم دين الله الواحد، ولتستعمر الأرض وفق شريعة الله.. ولهذا الوحى الإلهى الخاتم مكانة المرجعية المحورية فى دنيا المسلمين وأخراهم.. فمن بين سوره وآياته ولدت وتبلورت الأمة وجوامعها الموحدة لها.. العقيدة.. والشريعة ـ بما فيها من عبادات، ومعاملات، وقيم وأخلاق ـ والصبغة الإلهية للحضارة الإسلامية.. ووحدة الأمة.. ووحدة الدار.. وبإقامة هذه الجوامع يتحقق انتماء الأمة إلى الإسلام ـ أعظم نعم الله على المسلمين ـ وتتحقق إسلامية العمران الإسلامى.. ويتعلق المسلمون بأسباب السعادة فى الدار الآخرة، التى هى خير وأبقى..

وفى كل قضايا ومفردات، بل وصفحات المشروع الفكرى للدكتور يوسف القرضاوى تتصدر آيات القرآن الكريم فى كل مواطن الاستدلال والاستشهاد ـ تليها أحاديث السنة النبوية الشريفة ـ الأمر الذى يجعل للقرآن مكان ومكانة المرجعية المحورية فى هذا المشروع..

وفوق ذلك، فلقد نبه الرجل على المنهاج الذى اختاره ـ ورشحه ـ للتعامل مع القرآن الكريم..

فهو يدعو «من يريد فهم القرآن أن يقرأه على أنه كتاب الزمن كله، وكتاب الحياة كلها، وكتاب الإنسان كله، وكتاب الناس كلهم، وكتاب الحقيقة كلها»..

ويدعو « من يريد تفسير القرآن أن يتمكن من أدوات التفسير وآليات الفهم ـ اللغة وما يتعلق بها وبعلومها ـ وعلوم السنة النبوية . . ثم يلتزم قواعد تفسير القرآن . .

وأولى هذه القواعد : أن خير ما يفسر القرآن هو القرآن . . فما أجمل فى مكان نجد تفسيره وتفصيله فى مكان آخر ، وما كان عاما فى موضع يخصصه موضع آخر ، وما كان مطلقا فى آية قد تقيده آية أخرى .

ومع تفسير القرآن بالقرآن . . لابد أن نؤيد ذلك بالسنة ، نلجأ إليها إذا لم يكن الأمر واضحا فى القرآن ، فهى مبينة القرآن وشارحته ، وهى التفسير النظرى والتطبيق العملى لكتاب الله عز وجل . . ﴿ وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون ﴾[1] وينبغى أن نحذر من الأحاديث الضعيفة والموضوعة والواهية ، مما يذكر أحيانا فى كتب التفسير بالمأثور ، وفى كتب الرقائق ، وكتب الترغيب والترهيب . .

فإن لم نجد فى السنة ما يبين القرآن ، فهناك الصحابة ، رضوان الله عليهم ، فإذا ورد عنهم شئ فلابد أن نستقبله بصدر رحب . . فهم الذين شاهدوا التنزيل ، وأسباب النزول ـ وما صح منه قليل . .

وإذا اختلف الصحابة . . أمكن لنا أن نرجح قول بعضهم على بعض بمرجحات مختلفة . . فهم يتفاوتون . .

---

(١) النحل : ٤٤ .

وإذا لم نجد عند الصحابة ، نرجع إلى التابعين ، تلاميذ الصحابة . . فإذا أجمعوا كان إجماعهم حجة . . وإذا اختلفوا كان لنا أن نأخذ بقول من شئنا منهم بأساليب الترجيح المختلفة . . .

فإذا لم نجد عند الصحابة والتابعين ما يفسر القرآن ، نفسره بمقتضى اللغة والسياق[1] . .

بهذا المنهاج تعامل الدكتور يوسف مع القرآن الكريم . . الذى هو « روح الوجود الإسلامى ، وأساس بنيانه »[2] .

* * *

منهاج التعامل مع السنة النبوية الشريفة :

وكما دعا الدكتور يوسف ـ فى منهاج التعامل مع القرآن الكريم ـ إلى اعتماد السنة ، باعتبارها البيان النبوى للبلاغ القرآنى ، فلقد دعا ـ فى منهاج التعامل مع السنة النبوية ـ إلى فهمها فى ضوء القرآن الكريم . . « فالواجب أن نفهم السنة ـ بعد تحقيق صحة الرواية ـ فى ضوء القرآن الكريم ، وفى دائرة توجيهاته الربانية . . فالقرآن هو روح الوجود الإسلامى ، وأساس بنيانه ، وهو بمثابة الدستور الأصلى ، الذى ترجع إليه كل القوانين فى الإسلام ، فهو أبوها وموئلها . والسنة النبوية هى شارحة هذا الدستور ومفصلته ، فهى البيان النظرى والتطبيق العملى للقرآن ، ومهمة الرسول أن يبين للناس ما نزل إليهم . وما كان

---

(١) (تفسير سورة الرعد) ص ٤٢ ـ ٤٥ ، ٥٠ ، ٢٣ ، ٣١ ـ ٣٨ .
(٢) (كيف نتعامل مع السنة) ص ٩٣ .

لبيان أن يناقض المبيِّن ، ولا لفرع أن يعارض الأصل ، فالبيان النبوى يدور أبدا فى فلك الكتاب العزيز لايتعداه » .

وغير مرجعية القرآن وضوابطه ، ودورها ومكانتها فى فهم السنة النبوية والتعامل معها ، يدعو الدكتور يوسف إلى فهم الأحاديث فى ضوء أسباب ورودها وملابسات قولها أو فعلها أو إقرارها .. وكذلك فى ضوء مقاصدها .. كما يدعو إلى التمييز ، فى فهم السنة والتعامل معها ، بين المقاصد والأهداف الثابتة ، وبين الوسائل المتغيرة ، من مثل مقاصد «التداوى والتعافى والاستشفاء» ، ووسائل « الأدوية » التى ورد ذكرها فيما يسمى بالطب النبوى ، مثلا .. ومن مثل مقصد «رؤية الهلال» ، و«وسائل هذه الرؤية» .. **فالمقاصد ثوابت .. بينما الوسائل متغيرات**[1] ..

وفى الخلاف الشهير حول الموقف من أحاديث الآحاد ـ والتى اتفق العلماء على أنها ظنية الثبوت .. وعلى الأخذ بها فى الأمور العملية .. دون العقائد ، التى رأى الجمهور قصر مرجعيتها على ما هو قطعى الثبوت ـ فى هذا الخلاف ، الذى يجعل منه البعض معركة كبرى ، بل ومبررا للتكفير والتبديع والتفسيق ! يرى الدكتور يوسف « أن من أنكر حديثا من أحاديث الآحاد ، قامت شبهة فى نفسه حول ثبوته ونسبته إلى النبى ﷺ ، لايخرج بذلك من الدين ، لأن الذى يُخرج منه إنكار ما كان منه بيقين لاريب فيه ، ولا خلاف معه ، أى القطعى الذى يسميه العلماء «المعلوم من الدين بالضرورة» ..[2] .

(١) المرجع السابق . ص ٩٣ ، ١٢٥ ـ ١٣٧ ، ١٣٩ ـ ١٥٤ .
(٢) (فتاوى معاصرة) جـ ١ ص ١٠٥ ، ١٠٦ . طبعة الكويت سنة ١٤١٦هـ سنة ١٩٩٦م .

فـرد حـديث الآحـاد ليس ردا للسنة النبـوية ، لأن الخـلاف فى أمره إنما هو حول « الرواية » ، وليس حول مصدر السنة ، صلوات الله وسلامه عليه .. والعصمة إنما هى للرسول ، وليست للرواة !

بهذا المنهاج تعامل الدكتور يوسف مع السنة النبوية ، فاحتلت مكانا بارزا فى استدلالاته واستشهاداته فى كل صفحات مشروعه الفكرى ، وذلك فـضـلا عن الأعـمـال الفكرية العـديدة التى خصصها لخدمة السنة .. فالرجل ـ بكل المقاييس ـ واحد من السباحين المهرة فى محيطات المأثورات ، حباه الله ملكة ناقدة ، فى علوم الرواية والدراية على حد سواء .

* * *

● التجديد للفقه الإسلامي :

فى المشروع الفكرى للدكتور يوسف القرضاوى ـ وحيثما كان الميدان الذى يكتب فيه ـ يمتزج « الفقه » بـ «الدعوة » .. فالرجل « داعية ـ فقيه » .. ولذلك ، فإن « الفقه » عنده لايقف داخل الإطار الذى حكم صورته عند الفقهاء القدماء ، وإنما يمتد وتسرى أحكامه وضوابطه فى آليات « الدعوة » ومستويات خطابها ، المصممة ـ فى مشروع الدكتور يوسف ـ لتربية وتوعية وتثقيف جمهور الصحوة الإسلامية المعاصرة ، وقيادات الحركات الإسلامية فيها ، وأيضا لمحاورة المفكرين والعلماء ، إسلاميين كانوا أم غير إسلاميين .. فهو يرى « **أن عصرنا أحوج ما يكون إلى المزج بين الفقه والدعوة ، بحيث يكون الداعيةفقيها ، والفقيه داعية .. فلن يجدد الدين فى عقول الأمة وضمائرها إلا**

الداعية الذى يحمل عقل الفقيه ، والفقيه الذى يحمل روح الداعية ..»[1] ..

ولذلك ، وجدنا الفقه الذى كتب فيه وعنه ودعا إلى إشاعته ، لا يقف عند حدود الفقه القديم .. بل لقد تحدث عن ثمانية ميادين أو فنون للفقه الذى رآه ورآها ضرورية لتجديد الفقه الإسلامى كى يلبى حاجات العصر الذى نعيش فيه ، والمستقبل الذى نتطلع إليه ..

تحدث عن :

١ - فقه المقاصد ..

٢ - وفقه السنن الإلهية فى الاجتماع البشرى والعمران الإنسانى ..

٣ - وفقه الواقع المعيش ، على اختلاف ميادينه ..

٤ - والفقه الحضارى ، لحضارتنا الإسلامية ، وفى علاقاتها بغيرها من الحضارات ..

٥ - وفقه الأولويات ومراتب الأعمال ..

٦ - وفقه الموازنات بين المصالح والمفاسد ..

٧ - وفقه الاختلاف بين المذاهب والعلماء والحركات ..

٨ - وفقه المستقبل ، الذى غدا علما يتخصص فيه علماء المستقبليات فى عالمنا المعاصر ..

---

(١) المرجع السابق ، جـ ٢ ص ١١ .

٩ ـ وفقه المكارم الشرعية ، وحكم القيم والأخلاق . .

نعم . . اتسع مفهوم « الفقه » وميدانه ، فى مشروع الدكتور يوسف ، ليشمل فقه هذه الميادين . . ولقد أكد على هذه الحقيقة عندما كتب فقال : « إننا أحوج ما نكون إلى أنواع من الفقه ، ينبغى التركيز عليها ، وهى :

١ ـ فقه المقاصد : الذى لايقف عند جزئيات الشريعة ومفرداتها وحدها ، بل ينفذ إلى كلياتها وأهدافها فى كل جوانب الحياة ، واستكمال الشوط الذى قام به الإمام الشاطبى فى (موافقاته) ، وإبراز العناية بالمقاصد الاجتماعية خاصة .

٢ ـ وفقه السنن : أى القوانين الكونية والاجتماعية التى أقام الله عليها عالمنا هذا ، وقضى بأنها لاتتبدل ولاتتحول ، مثل سنن التغيير والنصر والتدرج . . وغيرها من سنن التقدم والرقى أو التخلف والانحطاط . .

٣ ـ وفقه الواقع : فإن من حصّل كثيرا من العلم ووسائل الاجتهاد ، ولكنه يعيش فى برج عاجى ، أو صومعة منعزلة ، غافلا عن مصالح المجتمع ومفاسده ، وما يدور فى العقول من أفكار ، وفى الأنفس من نوازع ، وفى الحياة من وقائع وتيارات . . مثل هذا ـ مع علمه ـ لايعد من أهل الاجتهاد والفتيا والحكم فى شريعة الإسلام .

٤ ـ والفقه الحضارى : الشامل لفقه المعرفة والعلم ، الضابط لقواعد النظر . . والخاص بالسلوك الحضارى . .

٥ ـ **وفقه الأولويات** : ومراتب الأعمال ، الذى يضع كل شىء فى مرتبته ، فلا يؤخر ماحقه التقديم ، ولا يقدم ماحقه التأخير ، ولا يصغّر أمر الكبير ، ولا يكبّر أمر الصغير ، فهذا ما تقضى به قوانين الكون ، وما تأمر به أحكام الشرع .. ومن فقه الأولويات : تقديم الكيف والنوع على الكم والحجم .. وأولوية علم الدراية على علم الرواية .. وأولوية الفهم والفقه على مجرد الاستيعاب والحفظ .. وأولوية المقاصد على الظواهر .. وأولوية الاجتهاد والتجديد على التكرار والتقليد .. وأولوية الدراسة والتخطيط لأمور الدنيا .. قبل العزم والتنفيذ .. وأولوية التخفيف والتيسير على التشديد والتعسير ، ومن ذلك اتباع سنة التدرج فى سياسة الناس عندما يراد تطبيق نظام الإسلام فى الحياة اليوم ، بعد عصر الغزو الثقافى والتشريعى والاجتماعى للحياة الإسلامية ، وذلك بالإعداد والتهيئة الفكرية والنفسية والأخلاقية والاجتماعية ، وإيجاد البدائل الشرعية للأوضاع المحرمة التى قامت عليها مؤسسات عدة لأزمنة طويلة .. وأولوية الأصول على الفروع .. وأولوية الفرائض على السنن والنوافل .. وأولوية حقوق العباد على حق الله المجرد .. وأولوية حقوق الجماعة على حقوق الأفراد .. وأولوية الولاء للجماعة والأمة على القبيلة والفرد .. والعناية ببناء الفرد قبل بناء المجتمع ، أو بتغيير الأنفس قبل تغيير الأنظمة والمؤسسات .. والتربية قبل الجهاد .. وتقديم العناية بالتربية والإعلام على تطبيق الجانب القانونى من الشريعة ، ولاسيما فى العقوبات ..

وتقديم الهموم الكبرى - مثل هم التخلف العلمى والتكنولوجى ، وهم النظام الاجتماعى والاقتصادى ، وهم الاستبداد والتسلط السياسى ، وهم التغريب والغزو الفكرى والثقافى ، وهم العدوان والاغتصاب الصهيونى ، وهم التجزئة والتمزق العربى الإسلامى ، وهم التسيب والانحلال الأخلاقى .. تقديم هذه الهموم الكبرى على فروع الفقه وهوامش العقيدة ، التى اختلف فيها السابقون ، وتنازع فيها اللاحقون ، ولا أمل أن يتفق عليها المعاصرون ..

٦ - وفقه الموازنة : بين المصالح والمفاسد .. وهو مبنى على فقه الواقع ، ودراسته دراسة علمية مبنية على ما يسّره لنا عصرنا من معلومات وإمكانات لم يكن يحلم بها بشر ، سواء واقعنا أو واقع الآخرين ، بعيدا عن التهوين والتهويل ..

٧ - وفقه الاختلاف : الذى عرفه خير قرون الأمة ، من الصحابة والتابعين وأئمة الهدى ، فلم يضرهم الاختلاف العلمى شيئا ، وجهلناه فأصبحنا يعادى بعضنا بعضا ، بسبب مسائل يسيرة ، أو بغير سبب !!

٨ - وفقه المستقبل : فنحن نريد فكرا مستقبليا يرنو دائما إلى الغد ، ولاينحصر فى الحاضر .. فهذا هو منطق الإسلام فى قرآنه وسنة نبيه ، ﷺ .. فالمتدبر للقرآن الكريم يجده منذ العهد المكى ، يوجه أنظار المسلمين إلى الغد المأمول ، والمستقبل المرتجى ، ويبين لهم أن الفلك يتحرك ، والعالم يتغير ، والأحوال تتحول ، فالمهزوم قد ينتصر ، والمنتصر قد

يهزم ، والضعيف قد يقوى ، والدوائر تدور ، سواء كان ذلك على المستوى المحلى أم العالمى . .

٩ ـ وفقه مكارم الشريعة : الذى لا يقف عند الأحكام وفقهها . . وإنما يتجاوزها إلى فقه مكارمها : الخاصة بالحِكَم التى جاءت من أجلها القيم والأخلاق . .[١] .

هكذا اتسع معنى « الفقه » ورحبت ميادينه ، فى المشروع الفكرى للدكتور يوسف القرضاوى ، ذلك لأن الرجل قد تبوأ مكانة «الداعية ـ الفقيه» ، الذى توجه بالدعوة المتفقهة والفقه الدعوى إلى جماهير الأمة ، وجاهد على ثغور الإعداد والتربية لطلائع الصحوة الإسلامية المعاصرة . . فكان « الفقه » عنده هو «فكر العافية الحضارية» الذى يخرج الأمة من المأزق الحضارى الذى تردت فيه ، والذى يأخذ منها بالخناق . .

فالفقه ، فى هذا المشروع الفكرى ، ليس «الفقه» التقليدى ، والاجتهاد فيه والإحياء له لا يقف به عند إطاره الذى تعارف عليه القدماء ، وإنما هو إحياء فكرى لمختلف الميادين التى يجب أن يفقهها فقهاء الإسلام . . إنه سبيل **«الخروج من فكر المحنة ـ فكر الأزمة والتوتر ـ ومن الفكر الظاهرى ـ الذى يقف عند حرفية**

---

(١) (الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم) ص ٦ ، ٧ ، ٨ ، ٨٧ ، ٩٢ ، ٩٧ طبعة بيروت سنة ١٤١٥هـ سنة ١٩٩٥م . و (السنة مصدرا للمعرفة والحضارة) ص ٢٤٧ ـ ٢٩٩ طبعة قطر سنة ١٤١٥هـ سنة ١٩٩٥م . و(فقه الزكاة) جـ ١ ص ٣٤ . و (أولويات الحركة الإسلامية فى المرحلة القادمة) ص ١٢١ . و (فى فقه الأولويات) ص ٤١ ، ٦٦ ، ٦٩ ـ ٧١ ، ٧٣ ، ٨٣ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ١٢٩ ، ١٣٣ ، ١٣٩ ، ١٤٢ ، ١٤٥ ، ١٤٨ ، ٢٠٩ ، ٢١٢ ، ٢٢٠ ، ٢٢٧ .

النصوص ـ ومن الفكر الخارجى ـ الذى يجمع إلى الإخلاص والشجاعة : العنف وضيق الأفق ـ ومن الفكر التقليدى ـ أسير المذهبية الضيقة ـ إلى فكر العافية ، وفقه السنن ، وفقه المقاصد ، وفقه الموازنات ، وفقه الأولويات . . فكر تحرير الأرض الإسلامية . . والانتصار لكل قضايا تحرر مطلق الإنسان المستضعف . . فكر الانتصار للأقليات المسلمة ـ المكونة لربع الأمة الإسلامية ـ فكر الحرية السياسية ، والديمقراطية الملتزمة بالأصول القطعية للإسلام . . فكر إنصاف الأقليات غير المسلمة ، كجزء من الأمة والدولة الإسلامية . . فكر الحوار مع الآخرين . . بمن فيهم عقلاء العلمانيين . . وعقلاء الحكام . . وعقلاء الغرب ، والمستشرقين . . فكر الحوار الدينى ، الذى يكتشف الأرض المشتركة بين المتدينين ضد المادية والإلحاد . . .»[1] .

تلك هى الآفاق الفكرية والحضارية لتجديد وإحياء الفقه الإسلامى ، فى هذا المشروع الفكرى . .

* * *

● الإفتاء الإسلامى المعاصر :

وكما كان « الفقه » عند الدكتور يوسف هو « فقه الدعوة » ، الذى هو عدة « الداعية الفقيه » . . كذلك كان « الإفتاء » فى مشروعه الفكرى ـ وهو معلم متميز ومحورى فى هذا المشروع ـ فهو ليس إفتاء تقليديا يقف عند الإجابة على السؤال ، وإنما هو دعوة

(١) (أولويات الحركة الإسلامية فى المرحلة القادمة) ص ١٢٧ ـ ١٨٨ .

وتثقيف مؤسسان على الفقه المنضبط ، يستهدف الإسهام فى دفع الشبهات عن أحكام الإسلام ، وضبط حياة المسلمين بضوابط الإسلام ومعاييره .. وعن منهج الدكتور يوسف هذا ـ فى « فتيا الدعوة » ـ يقول الرجل : « أرى الفتوى عندى لونا من الدعوة ، فهى تتضمن ـ إلى بيان الحكم الشرعى ، من الوجوب والاستحباب أو الكراهية أو الحرمة أو الإباحة ـ مالابد منه من تصحيح المفاهيم ، وبيان الحقائق ، ورد الأباطيل ، ودفع الشبهات ، وتوضيح الحِكم والأسرار ، حرصا على إضاءة العقول ، وإحياء القلوب ، وترشيد المسيرة ، وإنصاف الإسلام المظلوم المفترى عليه والمضيع ، بين غباء أبنائه ، ومكر أعدائه ، وحمق أصدقائه ، وعجز علمائه ، وفساد أمرائه[1] ..» .

وكان « أسلوب » الدكتور يوسف مناسبا وخادما لهذه الآفاق الأوسع التى جعلها مقاصده فى هذا الميدان .. فعنده « أن الأسلوب الناجح ، هو الجامع بين السهولة والدقة ، هو الذى يجمع دقة العالم إلى وضوح الداعية[2] .. والعصر أحوج ما يكون إلى المزج بين الفقه والدعوة ، بحيث يكون الداعية فقيها ، والفقيه داعية . فلن يجدد الدين فى عقول الأمة وضمائرها إلا الداعية الذى يحمل عقل الفقيه ، والفقيه الذى يحمل روح الداعية »[3] .

(١) (فتاوى معاصرة) جـ ٢ ص ١١ .
(٢) (فقه الزكاة) جـ ١ ص ٣٥ .
(٣) (فتاوى معاصرة) جـ ٢ ص ١١ .

أما منهجه فى الإفتاء ، فلقد جمع بين التحرر من الجمود المذهبى ، وبين الالتزام الأصولى ، وبين اختيار الأيسر من الأصول ـ وهو قد صاغ هذا المنهج ، وتحدث عن معالمه الستة .. التى هى :

أولاً : التحرر من العصبية المذهبية ، والتقليد الأعمى .. مع التوقير لأئمتنا وفقهائنا .. وذلك تنفيذا لوصاياهم بألا نقلدهم ولا نقلد غيرهم ، ونأخذ من حيث أخذوا .

ثانياً : تغليب روح التيسير والتخفيف على التشديد والتعسير .. أُيَسِّرُ الفروع ، حين أُشَدِّدُ فى الأصول ، وذلك فى ضوء النصوص والقواعد العامة للإسلام ، فلا أصادم نصا ثابتا محكما ، ولا قاعدة شرعية قاطعة ..

ثالثا : أن أخاطب الناس بلغة عصرهم التى يفهمون ، مراعيا خصائص التفكير ، وطرائق الفهم والإفهام . فنخاطب العقول بالمنطق .. وندع التكلف فى استخدام العبارات والأساليب .. وذكر الحكم مقرونا بحكمته وعلته ، مربوطا بالفلسفة العامة للإسلام ..

رابعا : الإعراض عما لاينفع الناس .. فلا أشغل نفسى ولا جمهورى إلا بما ينفع الناس ويحتاجون إليه فى واقع حياتهم .

خامسا : الاعتدال بين المتحللين والمتزمتين ، بالتزام روح التوسط والاعتدال بين التفريط والإفراط ..

سادسا : إعطاء الفتوى حقها من الشرح والإيضاح ، لأنى أعتبر نفسى عند إجابة السائلين : مفتيا ، ومعلما ، ومصلحا ، وطبيبا

ومرشدا .. وهذا يقتضى أن أبسط بعض الإجابات وأوسعها شرحا وتحليلا .. يجب أن يكون الفقيه المفتى مع سائليه كالطبيب النفسى مع مرضاه ، لابد أن يثقوا به ، ويستريحوا إليه ، ويفضوا إليه بذات أنفسهم ، ومكنون ما فى صدورهم .. يجب أن يكون أبا لصغيرهم ، وأخا لكبيرهم ، وصديقا لجميعهم ، لا «شرطيا» يريد أن يضبطهم متلبسين ، ولا «ممثل اتهام» يطلب لهم أقصى العقوبة »[1] !

هكذا ، غدت الفتوى - فى المشروع الفكرى للدكتور يوسف القرضاوى - إسهاما فى تجديد الفكر الإسلامى ، لا بالنسبة للمستفتين وحدهم ، وإنما لجمهور الأمة وطلائع الصحوة الإسلامية المعاصرة .. ففتاواه مادة «ثقافة إسلامية» للكافة .. حتى وإن لم يكونوا سائلين ولا مستفتين ..

* * *

● الثقافة العربية الإسلامية :

وكما ميزت الوسطية الإسلامية الجامعة مجمل مواقف الدكتور يوسف الفكرية ، ومفردات مشروعه الفكرى .. ميزت كذلك موقفه من ثقافة أمتنا .. فلا تناقض فى هذه الثقافة بين العروبة والإسلام ، بل هى جامعة بينهما .. ولا مقابلة فيها - فضلا عن التناقض والعداء - بين العلم والدين ، وإنما هى جامعة بينهما ..

---

(١) المرجع السابق . جـ ١ ص ١٠ ، ١١ ، ١٤ - ١٦ ، ١٨ ، ٢١ ، ٢٥ ، ٣٦ . وانظر كذلك (الفتوى بين الانضباط والتسيب) ص ١٠٧ .

ولا مكان فيها لصدام الأصالة والمعاصرة ، وإنما هى قائمة عليهما جميعا .. ولا مجال فيها لخلاف بين الخصوصية والعالمية ، لأنها إنسانية ، جامعة للتعبير عن «إنساننا» المنتمى للإنسانية الواحدة !

وبعبارة الدكتور يوسف : فإن «ثقافتنا : عربية إسلامية .. مكوناتها :

١ ـ الإسلام ..

٢ ـ واللغة العربية ..

وخصائصها:

١ ـ الربانية ٢ ـ والأخلاقية ٣ ـ والإنسانية ٤ ـ والعالمية

٥ ـ والتسامح ٦ ـ والتنوع ٧ ـ والوسطية ٨ ـ والتكامل ..

ولذلك ، فلا تناقض فى ثقافتنا بين العروبة والإسلام .. ولا صراع فيها بين العلم والدين ، فالعلم عندنا دين ، والدين عندنا علم ، والعلم دليل الإيمان ، والإيمان ملاك العلم .. ولهذا ؛ يجب أن نعمل على تكوين العقلية العلمية .. وإحياء معانى الإيمان .. نطور المؤسسات العلمية ، ونهيئ المناخ العلمى ؛ حتى تدخل الأمة عصر التكنولوجيا بخطاً ثابتة .. ونجدد أخلاق الإيمان ، ونقف فى وجه تيارات المادية واللادينية والإباحية .. فنجمع الأصالة الحقة والمعاصرة الحقة ، ونرفض الجمود والتحجر .. والفناء فى الغرب معا ..»[1] .

(١) الثقافة العربية الإسلامية بين الأصالة والمعاصرة) ص ١١ ـ ٣٣ ، ١٧٨ ، ١٧٩ .

وإسلامية ثقافتنا العربية . . وعروبة هذه الثقافة الإسلامية ، لاتعني - برأى الدكتور يوسف - القطيعة مع التيارات الثقافية التى ابتعد بها التغريب - الذى فرض عليها أحيانا - عن هذه الهوية العربية الإسلامية لثقافتنا . . فالرجل داعية حوار مع مختلف التيارات الثقافية فى واقعنا العربى والإسلامى ، بل وأحد أبرز المشاركين فى الحوارات مع رموز هذه التيارات . . يرى «ضرورة تواصل الحوار بين المخلصين من دعاة الأصالة ودعاة المعاصرة ، لتصحيح المفاهيم ، وإزالة الشبهات ، وتقريب الشقة ، ومحاولة توسيع مساحة المتفق عليه ، وتأكيد التعاون فيه ، والمناقشة الجادة فى المختلف فيه ، والعمل على تضييقه ، والاجتهاد فى الوصول إلى الصواب أو الصحيح أو الأصح ، ما وجدنا لذلك سبيلا ، وإلا وسعنا التسامح والتماس الأعذار للمخالفين ، وإن اعتبرناهم نحن مخطئين . .»[1] .

بهذه الروح ، وبهذا المنهاج ، تحدث الدكتور يوسف عن الثقافة العربية الإسلامية ، فى مشروعه الفكرى ، الذى مثل - بكل ميادينه ومعالمه - إسهاما متميزا فى ثقافتنا العربية الإسلامية المعاصرة .

* * *

المشروع الحضارى الإسلامى :

وإذا كان المقصد الأساسى من المشروع الفكرى للدكتور يوسف القرضاوى ، هو الإسهام - مع علماء ومفكرى اليقظة الإسلامية

(١) المرجع السابق . ص ١٦٣ .

المعاصرة - فى إحياء الإسلام وتجديده . . فإن هذا الإحياء والتجديد لايقف عند الفكر النظرى . . فالرجل ليس واحدا من منظرى «المدن الفاضلة» ، التى وقفت عند أحلام الفلاسفة ، مستعصية على الممارسة والتطبيق . . وإنما هو واحد من الذين يريدون تجديد الدين الإسلامى لتتجدد به دنيا المسلمين . . وإحياء الفكر الإسلامى ليحيا به موات الحياة الإسلامية المعاصرة . . ولذلك امتزج فى مشروعه : «النظر» بـ «العمل» و«الفكر» بـ«الحركة» . . وكانت عينه دائما على أن تصب كل مفردات المشروع الفكرى فى بلورة «الحل الإسلامى» لمشكلات الأمة المعاصرة ، وصياغة «المشروع الحضارى الإسلامى» ، الذى يمثل - بالنسبة للصحوة الإسلامية المعاصرة - دليل العمل الذى ينير لها الطريق ، وطوق النجاة ، كى لاتدخل فى طريق مسدود كما يمثل - بالنسبة لنهضتنا المنشودة - البديل الإسلامى للمشروع الحضارى الغربى ، الذى مثل بالنسبة لأمتنا - منذ قرنين من الزمان - «التغريب» و«الاستلاب الحضارى» ، الذى شوه معارفنا ، وكاد أن يمسخ هويتنا ، وأن يجعل منا «قردة» ترقص على أنغام الآخرين ! . . وذلك فضلا عن ما جلبه على واقعنا المادى من ضعف وتشرذم وإحباط ! . .

فالبديل الإسلامى - بدلا من الغربى - والحل الإسلامى - والمشروع الحضارى الإسلامى - الذى هو الطريق الطبيعية للإصلاح والتقدم فى هذه الأمة - هو المقصد الأساسى ، والمطلب الأعز من وراء المشروع الفكرى للدكتور يوسف القرضاوى . .

فنحن ، وإن اتفقت حضارتنا الإسلامية مع الحضارات الأخرى فى الإبداع المادى ، وحقائق وقوانين علوم المادة - «الطبيعية» والدقيقة والمحايدة - إلا أن حضارتنا متميزة بروحها عن غيرها من الحضارات . . «فالحضارات لاتتمايز بجسمها وإنجازاتها المادية . . وإنما تتمايز بالروح ، أى مجموعة العقائد والمفاهيم والقيم والآداب والتقاليد . .

لقد امتازت الحضارة الغربية بإنجازاتها المادية التى لاتنكر ، والتى استطاعت تطويع «الطبيعة» لخدمة الإنسان . . لكن روحها تميزت بالعديد من السلبيات ، التى تعود أصولها إلى جذورها اليونانية والرومانية . . ومن هذه السلبيات :

١ - الغبش فى معرفة حقيقة الألوهية . .

٢ - والنزعة المادية . .

٣ - والنزعة العلمانية . .

٤ - والصراع . .

٥ - والاستعلاء على الآخرين . .»[1] .

فنحن لانرفض عبقرية الحضارة الغربية فى الإبداع المادى والعلوم الكونية . . وإنما نرفض السلبيات التى ميزت روحها ، ومجموعة العقائد والمفاهيم والقيم والآداب والتقاليد فيها . . ولذلك ، نرفض أن يكون خيارها الحضارى - فى هذه الروح - هو خيارنا الحضارى النهضوى . . فعندنا فى الإسلام البديل ، الطبيعى . . والأقوم . . والأجدى . . عندنا الروح الحضارية الإسلامية «التى تميزت وامتازت» بـ :

---

(١) (الإسلام حضارة الغد) ص ١١ - ٢٥ طبعة القاهرة سنة ١٩١٦هـ سنة ١٩٩٥م .

١ ـ التوازن والتكامل بين الربانية والإنسانية . . بين الوحى والعقل . . بين الروحية والمادية . . بين الأخروية والدنيوية . . بين الفردية والجماعية . . بين المثالية والواقعية . . بين الماضوية والمستقبلية . . بين المسئولية والحرية . . بين الاتباع والابتداع . . بين الواجبات والحقوق . . بين الثبات والتغير . . بين الاعتزاز والتسامح . . بين العلم والإيمان . . بين الحق والقوة . . بين العقيدة والعمل . . بين الدين والدولة . . بين التربية والتشريع . . بين وازع الإيمان ووازع السلطان . . بين الإبداع المادى والسمو الخلقى . . بين القوة العسكرية والروح المعنوية . . »[1] . .

٢ ـ **ولذلك ، كانت العلمانية ـ التى تعزل السماء عن الأرض ، وتحرر العمران الإنسانى من التدبير الإلهى ـ مرفوضة فى الحل الإسلامى ، بينما هى قسمة من أبرز قسمات المشروع** الحضارى الغربى . . « فالغرب نادى بالعلمانية ليواجه بها كهنوت الكنيسة الغربية ، التى وقفت مع الجمود ضد الفكر ، ومع الجهل ضد العلم ، ومع الملوك ضد الشعوب ، ومع الأغنياء والإقطاعيين ضد الفقراء والكادحين .

ونحن لاتوجد لدينا بابوية ولا كهنوت ، ولا «رجال دين» ما حلّوه فى الأرض فهو محلول فى السماء ، وما عقدوه هنا فهو معقود هناك .

فالعلمانية فى الغرب لها ما يبررها من فكرها الفلسفى ، منذ عهد أرسطو الذى يرى أن الله لا علاقة له بالعالم ، لايعلم فيه شيئا ، ولايدبر فيه أمرا ، ومن فكرها الدينى ، الذى ترك ما لقيصر لقيصر وما لله لله !

---

(١) المرجع السابق . ص ١٥١ ـ ١٥٢ .

أما العلمانية عندنا فهى ضد الدين ، وضد فكر الأمة ، وضد مصلحتها . وهى تجرد الأمة من طاقات هائلة ، كان يمكن أن تفجرها العقيدة والشريعة لو كانت العقيدة هى الموجهة ، والشريعة هى الحاكمة . .»[1] .

ولذلك ، «فإن العلمانيين ، الذين يريدون أن يفرغوا مجتمعاتنا من الدين ، أو يحكموا الأمة بغير شريعة الله . . إنما يثنون عنان شعوبهم قسرا ، ويحكمونها كرها وقهرا ، ويقودونها رغم أنوفها إلى ما لاتريد ولاتحب . فتشعر بالتناقض بين عقيدتها ونظامها ، وبين ضميرها وواقعها . .»[2] .

٣ ـ ومن هنا ، فإذا كان الغبش فى عقيدة الألوهية ـ كسمة من سمات روح الحضارة الغربية ـ قد جعل الكفر والإلحاد والعلمانية والتحلل ، فكرا طبيعيا فى مجتمعات تلك الحضارة . . فإنها ـ فى المجتمعات الإسلامية ـ إنما تمثل عدوانا وحربا على المقومات الثوابت لحضارتنا الإسلامية ، ولذلك كان « جهادها ، هى ومن يسندها من قوى داخلية وخارجية ، فريضة العصر ، وواجب اليوم . .»[3] .

كما أن «الردة الفكرية» ، التى لا تتبجح تبجح المرتدين المعالنين ، بل تغلف فكرها ، وتتسلل به إلى العقول تسلل الأسقام فى الأجسام . . والتى تطالعنا كل يوم آثارها . . هى أخطر من الردة المكشوفة . . فالنفاق أشد خطرا من الكفر الصريح ، ونفاق «عبد

(١) (ثقافتنا العربية الإسلامية بين الأصالة والمعاصرة) ص ١٦٩ .

(٢) (فتاوى معاصرة) جـ ١ ص ٣٣ ، ٣٤ .

(٣) (فى فقه الأولويات) ص ١٧ .

الله بن أبىّ» أخطر على الإسلام من كفر «أبى جهل» . . والفريضة المؤكدة هنا هى : محاربتهم بمثل أسلحتهم ، الفكر بالفكر ، حتى تكشف أوراقهم ، وتسقط أقنعتهم ، وتزال شبهاتهم بحجج أهل الحق . .»[1] .

* * *

وإذا كان هذا الخيار الحضارى - الغربى . . المادى . . العلمانى - مرفوضا من الإسلام وحضارته . . فإن وسطية الإسلام ، ترفض - أيضا - خيار الغلو الإسلامى ، والتشدد والتطرف المنتسب إلى الإسلام . .

ولقد جعلت الوسطية الإسلامية من المشروع الفكرى للدكتور يوسف حربا معلنة على الجبهتين معا . . جبهة الغلو العلمانى ، وجبهة الغلو الإسلامى . .

فهو قد حدد للغلو والتطرف الإسلامى مظاهره ، المتمثلة فى :

« ١ - التعصب للرأى ، وعدم الاعتراف بالرأى الآخر . .

٢ - وإلزام جمهور الناس بمالم يلزمهم الله به .

٣ - والتشديد فى غير محله . .

٤ - والغلظة والخشونة . .

٥ - وسوء الظن بالناس . .

---

(١) (جريمة الردة وعقوبة المرتد) ص ٧١ - ٧٣ . طبعة القاهرة سنة ١٤١٦هـ سنة ١٩٩٦م .

٦ ـ والسقوط فى هاوية التكفير . . »[1] .

ولم يلق باللوم ، فى ظهـور هذا الغلو والتطرف ـ فى حـيـاتنا الإسـلامية المعاصرة ـ على طرف دون طرف ، وإنما أبصر ـ بالمنهاج الوسطى الموضوعى ـ جميع الأسباب التى تضافرت على إيجاد هذه الثمرة المرة فى واقعنا الإسلامى . . وذلك من مثل :

« ١ ـ ضعف البصيرة بحقيقة الدين . .

٢ ـ والاتجاه الظاهرى فى فهم النصوص . .

٣ ـ والاشتغال بالمعارك الجانبية عن القضايا الكبرى . .

٤ ـ والإسراف فى التحريم . .

٥ ـ والتباس المفاهيم . .

٦ ـ واتباع المتشابهات وترك المحكمات . .

٧ ـ وضعف المعرفة بالتاريخ والواقع وسنن الكون والحياة . .

٨ ـ وغربة الإسلام فى ديار الإسلام . .

٩ ـ والهجوم العلنى والتآمر الخفى على الأمة الإسلامية . .

١٠ ـ ومصادرة حرية الدعوة إلى الإسلام الشامل . .

١١ ـ واللجوء إلى العنف والتعذيب . .»[2] .

---

(١) (الصحوة الإسلامية بين الجمود والتطرف) ص ٤٣ ـ ٦٠ . طبعة القاهرة سنة ١٤١٥هـ سنة ١٩٩٤م .

(٢) المرجع السابق . ص ٦١ ـ ١٢٩ .

ومع حب الدكتور يوسف للشهيد سيد قطب (١٣٢٤ - ١٣٨٦هـ - ١٩٠٦ - ١٩٦٦م) واحترامه لعلماء « الظاهرية الجديدة » - النصوصية . . الحرفية - كان حب الحق عنده أكبر ، والوعى بمصلحة الأمة أكثر ، والحرص على تجلية الوجه الحقيقى للحل الإسلامى هو الأولى . . فتحدث عن ملابسات ظهور فكر الغلو الإسلامى - وخاصة فى عقدى الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين الميلادى - منتقدا رافده المستعلى على الواقع والغاضب على الأمة والرافض لكل مالديها . . وكذلك رافده الجامد المقلد ، المتمثل فيما سماه الدكتور يوسف بـ « الظاهرية الجديدة » . .

صنع ذلك ، فى العديد من مؤلفاته . . وكتبه فقال : «إن فترة الخمسينات والستينات كانت مجالا لانتشار نوع من الأفكار السوداء فى الساحة الإسلامية . . فكر الرفض والتشاؤم والاتهام وسوء الظن بالآخرين على اختلاف نزعاتهم واتجاهاتهم ، حتى المسلمين منهم . . فكر التفسيق والتبديع ، بل والتكفير . وساعد على ذلك الجو الخانق الذى كانت تعيشه الحركة الإسلامية . .

فى هذه المرحلة ، ظهرت كتب الشهيد سيد قطب ، التى تمثل المرحلة الأخيرة من تفكيره - الطبعة الثانية من (فى ظلال القرآن) و(معالم فى الطريق) و(الإسلام ومشكلة الحضارة) - والتى تنضح بتكفير المجتمع ، وتأجيل الدعوة إلى النظام الإسلامى ، والسخرية بفكرة تجديد الفقه وتطويره ، وإحياء الاجتهاد ، وتدعو إلى العزلة الشعورية عن المجتمع ، وقطع العلاقة مع الآخرين ، وإعلان الجهاد

الهجومى على الناس كافة ، والاستخفاف بدعاة التسامح والمرونة ، ورميهم بالسذاجة والهزيمة النفسية أمام الحضارة الغربية . .

كماظهرت كتب الشيخ سعيد حوى ، وهى تتبنى نفس الفكر ، وتسير على الخط ذاته . .

وفى نفس الوقت ، راج فقه من أسميهم بـ (الظاهرية الجدد) . . وبهذا اغلب على الفكر الإسلامى الإعنات والتصلب ، وتقهقرت روح الوسطية السمحة الميسرة ، إلى حين» .

ثم يدعو الدكتور يوسف إلى مغالبة هذا الغلو . . إذ «لابد من التغلب على فكر المحنة ، أو فكر الأزمة ، لننتقل إلى الفكر الوسطى المعتدل ، المعبر عن وسطية الأمة المسلمة ، ووسطية المنهج الإسلامى : الذى أراد الله به اليسر ، ولم يرد به العسر»[1] .

وإذا كان «فصيل الغلو» الإسلامى ، قد رفض الواقع الإسلامى ، وحكم عليه بالكفر ، انطلاقا من الحكم عليه بالجاهلية . . فلقد انتقد الدكتور يوسف هذا التوصيف المغالى ، وقال : « إن مجتمعنا المعاصر ليس جاهليا ، كالمجتمع الذى واجهه الإسلام عند ظهوره . . وإنما هو مجتمع خليط من الإسلام والجاهلية ، فيه عناصر إسلامية أصيلة ، وعناصر جاهلية دخيلة . . فيه قلة مرتدة . . وفيه منافقون . . لكن جماهير الأمة ملتزمة بالإسلام . . والمتأثرون بالغزو الفكرى جهال لا كفار . . ومعظمهم لم ينكر حق الله فى أن يشرع لعباده ما يشاء ويلزمهم بما يريد ، ولكنهم يظنون أنه منحهم حرية الاختيار فيما

---

(١) (أولويات الحركة الإسلامية فى المرحلة القادمة) ص ١١٦ ـ ١١٨ .

يحكمون به أنفسهم فى بعض شئون الحياة . . أو أن ما جاء به الإسلام فى النظام السياسى والاجتماعى والاقتصادى أشياء قليلة لاتبلغ أن تكون نظاما يوجّه الحياة . . وبعضهم يقول : لايمكن تطبيقه فى هذا العصر . . وهذا إنما جاء من الجهل بحقيقة دينهم وشموله . . إن جل هؤلاء الناس لاينكرون حكم الله ، لكنهم يجهلونه . .»[1] .

هكذا انتقد الدكتور يوسف ـ من موقع الوسطية الإسلامية الجامعة ـ الغلو الدينى ، كما سبق وانتقد الغلو اللادينى . .

وكما دعا إلى الحوار مع العلمانيين . . ومحاربة فكر الردة بالفكر المؤمن . . فلقد دعا إلى المعالجة الجذرية والشاملة لأسباب الغلو الدينى ، فلم يوجه اللوم إلى الشباب وحدهم . . ولا إلى الحكام دون سواهم . . وإنما دعا إلى :

١ ـ رجوع الحكام إلى شرع الله . .

٢ ـ ومعاملة الشباب بروح الأبوة والأخوة . .

٣ ـ والبعد عن التطرف فى تصوير التطرف . .

٤ ـ وفتح النوافذ لنسيم الحرية . .

٥ ـ والبعد عن مقابلة التكفير بمثله . .

٦ ـ وأن يفقه الشباب الجزئيات فى ضوء الكليات . .

٧ ـ والفقه فى مراتب الأحكام . . وأدب الاختلاف . .

---

(١) (الاجتهاد المعاصر بين الانضباط والانفراط) ص ١٠١ ـ ١٣١ .

٨ ـ والعلم بقيم الأعمال ومراتبها . .

٩ ـ وتقدير ظروف الناس وأعذارهم . .

١٠ ـ والفقه فى سنة الله فى خلقه . .

١١ ـ واحترام التخصص . .

١٢ ـ والأخذ عن أهل الورع والاعتدال . .

١٣ ـ والتيسير لا التعسير . .

١٤ ـ والدعوة بالحكمة والحسنى . .

١٥ ـ ومعايشة جماهير الناس . .

١٦ ـ وحسن الظن بالمسلمين . .»[1] .

فانطلاقا من تميز الحضارة الإسلامية عن روح الحضارة الغربية ، رفض الدكتور يوسف الخيارالحضارى الغربى العلمانى . .

وانطلاقا من الوسطية الإسلامية ، رفض الغلو الدينى . . غلو الجاهلية والتكفير والاستعلاء ، والحرفية والجمود . .

ليعلن انحيازه ، وانحياز مشروعه الفكرى إلى «الحل الإسلامى» ، خيارا حضاريا للنهضة الإسلامية المنشودة . . هذا الخيار الذى يحتاج إلى صياغة الإسلام بديلا حضاريا عصريا . . وإلى حركة إسلامية تجاهد فى سبيل تطبيق وتحقيق هذا البديل . . وإلى مجتمع إسلامى يحتضن هذا البديل . . وإلى دولة إسلامية تحكم المسلمين بالإسلام . . « فإذا كان الحل الإسلامى ، هو

---

(١) (الصحوة الإسلامية بين الجمود والتطرف) ص ١٣٠ ـ ٢٢٨ .

قيام مجتمع إسلامى خالص للإسلام .. فلابد لذلك من حكم ودولة .. ولإقامة الحكم الإسلامى والدولة الإسلامية ، لابد من حركة إسلامية داعية شاملة ، تمهد له ، وتدعو إليه ، وتعد له رجاله وأنصاره .. فكل الدول قد سبقتها وأعدت لها حركاتها الحاملة لفكرها وعقيدتها (أيديولوجيتها) ...»[1] .

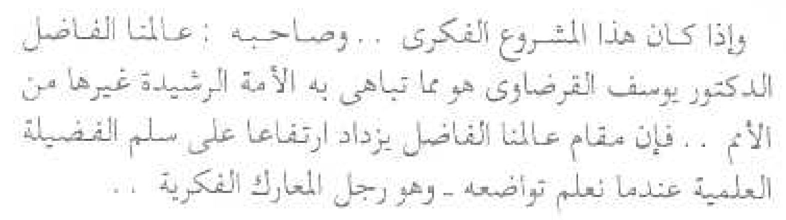
***

تلك إشارات - مجرد إشارات - إلى أبرز قضايا ومعالم المشروع الفكرى لعالمنا الفاضل الدكتور يوسف القرضاوى .. من الانتماء إلى الأمة الإسلامية الواحدة .. إلى الوسطية الإسلامية الجامعة .. إلى الإحياء المعاصر للاجتهاد الإسلامى .. إلى منهاج التعامل مع القرآن ، والسنة ، والفقه ، والإفتاء ، والثقافة .. وصولا إلى الحل الإسلامى ، والمجتمع الإسلامى ، والدولة الإسلامية ..

---

(١) (الحل الإسلامى فريضة وضرورة) ص ٨٨ . طبعة بيروت سنة ١٤١٤ هـ سنة ١٩٩٣م .

وأخيرا: تواضع العلماء



وإذا كان هذا المشروع الفكرى ... وصاحبه : عالمنا الفاضل الدكتور يوسف القرضاوى هو مما تباهى به الأمة الرشيدة غيرها من الأمم .. فإن مقام عالمنا الفاضل يزداد ارتفاعا على سلم الفضيلة العلمية عندما نعلم تواضعه ـ وهو رجل المعارك الفكرية ..

إنه يقدم لنا درسا جديرا بالتدبر ، عندما هم بأن يكتب فى التصوف ـ علم القلوب والأذواق ـ ففاضت نفسه على قلمه بهذه الكلمات ، الناقدة للذات ، والمعبرة عن خلق العدول من العلماء ..

لقد كتب عن السر فى إحجامه عن خوض غمار الكتابة فى التصوف ـ علم السلوك ـ فقال :

« ... هو ما أعلمه من نفسى من تفريط فى جنب الله تعالى ، وتقصير فى طاعته سبحانه ، وأن جناحى مهيض عن الطيران فى هذه الأجواء العليا .

فكيف ألقى بنفسى فى بحر خضم لا أحسن السباحة فيه ، ولا الغوص فى أعماقه ؟

وإذا كان لى فضل هنا ـ والفضل لله وحده ـ فهو أنى أعرف نفسى جيدا ، ولا تستطيع بمكرها أن تخدعنى عن سبر غورها ، وكشف زيفها .

ولم يغرنى عن استبانة حقيقتها مدحُ الناس لى ، وثناؤهم على شخصى ، وذلك لأن الخلق يتعاملون مع الظواهر لا

السرائر، مع القشور لا مع اللباب، مع السطوح لا مع الأعماق.

وأنا أتمثل دائما بقول ابن عطاء الله (٧٠٩هـ ١٣٠٩م) فى (حِكَمه) :

«الناس يمدحونك بما يظنونه فيك، فكن أنت ذاما لنفسك لما تعلمه منها.. أجهلُ الناس من يترك يقين ما عنده لظن ما عند الناس» !

وكم أخجل من نفسى - والله - حين يُضفون علىّ من الأوصاف ما لستُ أهلاله، وهذا من جميل ستر الله على عباده..

ثم قوّى عزمى (على الكتابة فى علم السلوك) قوة رجائى فى رحمة الله تعالى ومغفرته وإحسانه ، وأنى إن لم أكن أهلا أن أنال رحمته ، فرحمته أهل أن تنالنى .

وقد قرأت فى الصحيح :

أن رجلا جاء يسأل النبى ، ﷺ ، عن الساعة ، فقال له :

- « وما أعددت لها » ؟

- قال : والله ما أعددتُ لها من كثير صلاة ولا صيام ولا صدقة، ولكنى أحب الله ورسوله ؟

- فقال ﷺ له : « أنت مع من أحببت » [1] ..

* * *

(١) متفق عليه انظر (الحياة الربانية والعلم) ص ١٦ ، ١٧ .

هكذا نجد أنفسنا إزاء تواضع يزدان به العلماء . .

وإزاء عـالم تزدان به الأمـة . . وإزاء مـشـروع فكرى ، إزدان بالوسطية الإسلامية ـ التى هى جوهر منهاج الإسلام ـ مد الله فى عمر عالمنا الجليل . . ونفعنا بعلمه ـ الذى جسده هذا المشروع . . الذى قاربت كتبه التسعين كتابا ـ والذى تتوالى ثمراته اليانعة والناضجة بالجديد والمفيد . .

إننا إزاء ثمـرة من ثمـار الإسـلام . . أعظم نعم الله على المؤمنين . .

فالحمد لله على نعمة الإسلام . . والصلاة والسلام على نبى الإسلام .

الفهـــرس

إلى القارئ العزيز ..

في هذه السلسلة الجديدة :

إذا كان «التنوير الغربى» هو تنوير علمانى ، يستبدل العقل بالدين ، ويقيم قطيعة مع التراث ..

فإن «التنوير الإسلامى» هو تنوير إلهى ، لأن الله والقرآن والرسول صلى الله عليه وسلم : أنوار ، تصنع للمسلم تنويرا إسلامياً متميزا .

ولتقديم هذا التنوير الإسلامى للقراء ، تصدر هذه السلسلة ، التى يسهم فيها أعلام التجديد الإسلامى المعاصر :

- د . محمد عمارة
- المستشار طارق البشرى .
- د . حسن الشافعى
- د . محمد سليم العوا .
- ا . فهمى هويدى
- د . جمال الدين عطية .
- د . سيد دسوقى
- د . كمال الدين إمام .

وغيرهم من المفكرين الإسلاميين ..

إنه مشروع طموح ، لإنارة العقل بأنوار الإسلام .

الناشر

